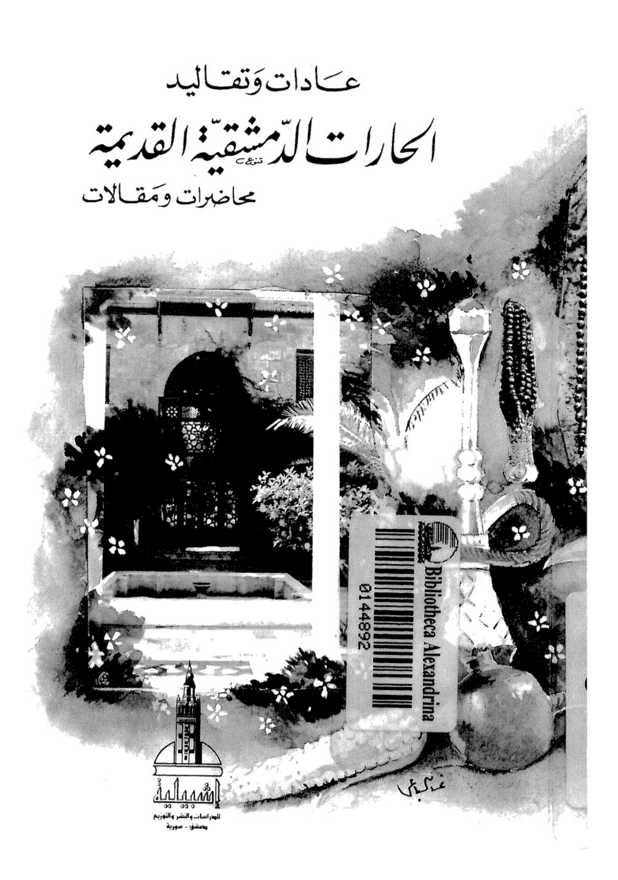
ألفة الإدلبي

عادات وتقاليد

الحارات الدمشقية القديمة

محاضرات ومقالات



عادات وتقاليد

الحارات الدمشقية القديمة

لوحة الغلاف للفنّان :

غسّان السّباعي

التّنفيذ:
إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع
دمشق ✉ ٤٣٦٣ ، سورية

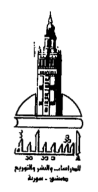
الإخراج والإشراف الفنّي : **فراس السّباعي**

ألفة الإدلبي

عادات وتقاليد

الحارات الدمشقية القديمة

محاضرات ومقالات



الطبعة الأولىٰ
شباط (فبراير) ١٩٩٦
إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع
دمشق ، ص.ب ٤٣٦٣

الإهداء

إلىٰ أبنائي:

«ليلىٰ»، و«ياسر»، و«زياد»،

وقد حملوا في مُغتربهم دمشق:

كلمةً تَرِفّ علىٰ الشّفة

وإيماضةً في العين،

وخفقةً في الفؤاد،

وحبًّا، وحنينًا...

أُهدي بعض ما ألهمتْني مدينتُهم الحبيبة...

المؤلف

عادات وتقاليد

الحارات الدمشقية القديمة

أُلقيت هذه المحاضرة

في «مكتبة الأسد»، مساء ٥ ـ ١٠ ـ ١٩٩٢.

عادات وتقاليد الحارات الدمشقيّة القديمة

كان لحاراتنا الدمشقيّة القديمة عاداتٌ وتقاليد يُعمل بها وكأنها قوانين مكتوبة لا يجوز خرقها أبدًا. كان أجمل ما في هٰذه العادات والتقاليد هو التّعاطف الودّي الإنسانيّ الذي يشمل أبناء الحارة جميعَهم، حتّىٰ لكأنهم أسرةٌ واحدة. كانوا يفرحون معًا، ويحزنون معًا، وكثيرًا ما كانوا يجتمعون في مضافة أحد وجهاء الحارة التي كانت تعقد عادة في البيت البرّاني. كان يجلس فقراؤهم إلىٰ جانب أغنيائهم، لا يشمخ غنيُّهم علىٰ فقيرهم، ولا يتعالىٰ كبيرهم علىٰ صغيرهم. كانوا يَحُلّون مشكلات حارتهم قبل أن تصل إلىٰ الحكومة، يصالحون المتشاجرين، ويساعدون المنكوب والمريض، والعاطل عن العمل، يجهزون الميّت الفقير، ويعطفون علىٰ الأرامل والأيتام. كان بينهم تضامنٌ اجتماعيّ عفويّ تفرضه الشّهامة والنخوة، والشعور الإنسانيّ مع الغير، لا سيّما إذا كان هٰذا الغير جارًا... فللجار حقٌّ علىٰ جاره لا يمكن التّغاضي عنه. وكان «قبضايات» الحيّ، أو «الزكرتيّة»، يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن

أمن الحارة، وعن آداب أبنائها وبناتها فيما يختص بالشرف والعرض..

أحبُّ أن أروي لكم حادثة تؤكّد هٰذا التّضامن العفويّ الذي كان بين أبناء الحارة الواحدة:

تداعىٰ سقف إحدىٰ الغرف في بيتنا الدمشقيّ القديم، فجاء والدي ببنّاء من أهل الحارة اَسمه «عارف الكلّاس» لإصلاح السقف، وكلّف البنّاء أن يشتري هو موادّ البناء، فجاء «عارف الكلّاس» في اليوم التالي وقد اَشترىٰ موادَّ تكفي لإصلاح سقفين!

فسأله والدي قائلًا:

ـ لمَ هٰذا كلّه يا عارف وأنا طلبت منك إصلاح سقف واحد؟!

أجابه البنّاء:

ـ نسيت والله يا أفندي أن آخذ رأيك، ولٰكنّني علىٰ يقين أنّك لا تعارض. سقف غرفة جارنا فلان أوشك علىٰ الهبوط، وهو مريض كما تعلم وعاطل عن العمل، وقد دعاني لإصلاح السقف فوجد الكُلْفة باهظة أكبر من قدرته فقال لي: دعه يهبط علينا، ويخلّصنا من هٰذه الحياة المُرّة!... فقلت في نفسي: نتعاون أنا وأنت علىٰ إصلاح سقف جارنا، الكلفة منك يا أفندي، والشغل عليّ.

فشكره والدي لأنّه أتاح له مساعدة أحد الجيران. ولا شكّ أنّ البنّاء «عارف الكلّاس» هٰذا أكرم من والدي فقد عمل يومين

كاملين مجّانًا علىٰ حساب قوته اليوميّ ليساعد جاره المريض الفقير...

كان إذا تصادف أنّ في الحارة عُرسًا، وقد وُزّعت الدعوات ولم يبق لموعد العرس إلّا أيّام قلائل فتوفّي أحد الجيران، كان يؤجّل العُرس أربعين يومًا، لأنّه لا يجوز أن يكون في الحارة الواحدة بيت فيه عزاء وحزن، وآخر فيه فرح ومرح. هٰذا ممّا يؤكّد أيضًا أنّ الجار كان بمثابة أقرب الأقرباء، وأنا والله أُجّل عرسي أربعين يومًا لأنه توفّي «مصطفىٰ باشا العابد» قبل العرس بثلاثة أيّام وكان جارًا لبيت العريس فٱضطرّوا أن يؤجّلوا العرس أربعين يومًا.

كان إذا حدث سوء تفاهم بين أسرتين من سكان الحارة أدّىٰ إلىٰ القطيعة ثمّ توفّي أحد أفراد إحدىٰ الأسرتين، كان يُتناسىٰ كلّ شيء تجاه الموت وتأتي الأسرة المقاطعة للتعزية، وكأنّ شيئًا لم يكن، وتعود المياه إلىٰ مجاريها.

كان أقرب الجيران لبيت المتوفّىٰ يفتح بيته لٱستقبال المعزّين من الرجال، ويُترك بيت المتوفّىٰ لٱستقبال المعزّيات من النساء، ثلاثة أيّام كاملة وفي هٰذا ما فيه من الإزعاج. كذٰلك في الأفراح إذا كان بيت العريس صغيرًا لا يتّسع لإقامة العرس، كان يستعير بيت أحد جيرانه.

بهٰذه المناسبة، وتأييدًا لقولي هٰذا، أُحبُّ أن أروي لكم حادثة قرأتها في كتاب نفيس جدًّا صدر حديثًا من تأليف سفيرنا السابق الأستاذ

«جمال الفرّا»، اَسم الكتاب «الله يعمرك يا حيّ الورداتـ»، وحيّ الوردات هٰذا في القنوات، يحدّثنا المؤلّف حديثًا ممتعًا عن «حارة الطّالع» في حيّ الوردات، وهي الحارة التي نشأ فيها المؤلّف نفسه، يصف في هٰذا الكتاب عادات وتقاليد حاراتنا الشاميّة القديمة منذ مطلع القرن العشرين حتّىٰ الاَحتلال الفرنسيّ لبلادنا. ومن خلال الحديث عن هٰذه الحارة الصغيرة يروي لنا المؤلّف أحداثًا تاريخيّة هامّة مرّت ببلادنا أو بالأحرىٰ تاريخ ما أهمله التاريخ في تلك الفترة.

أمّا الحادثة فإليكم إيّاها:

خَطَبَ شابٌّ فقير بيّاع «عرق سوس» اَسمه «عمر» من حارة الطّالع، فتاةً يتيمة اَسمها «سعاد»، واَمتدّت الخِطبة سنةً كاملة، فجاءت أمّ العروس إلىٰ بيت العريس وقالت لأمّه:

ـ يا حاجّة إلىٰ متىٰ ننتظر؟؟ وقد مضىٰ علىٰ الخطبة سنة كاملة!!

قالت أمّ العريس:

ـ بودّي، والله، أن أقيم عرسًا لعمر وسعاد يقوم له حيّ الوردات ويقعد، ولٰكن يا بنتي ما باليد حيلة!... بيتنا صغير لا يصلح للأعراس والحالة ضيّقة وعايشين بالسترة.

أجابت أمّ العروس:

ـ ولا يهمّك يا حاجّة مالنا وللأعراس؟... لا يأتي من ورائها إلّا وجع الراس، خلّيها أهلية بمحلّيّة.

ويبلغ هٰذا الحوارُ أكبرَ غنيٍّ في الحارة، هو «درويش آغا القادري». فأخذته الحميّة والنخوة، فما كان منه إلّا أن أوفد زوجه «أمّ أيمن» لتقول لأمّ العريس:

ـ نحن جيران، وأبناء حارة واحدة مثل الأهل، وٱبنك عمر بمعزّة ٱبننا أيمن. أقْسم الآغا بالله العظيم أن يقيم عرس عمر وسعاد في بيته وعلىٰ حسابه كما لو كان عمر ولده.

وفعلًا أقام «درويش آغا القادري» عرسًا رائعًا للفقيرين اليتيمين، حتّىٰ إنّه جاء بأكبر فرقة موسيقيّة كانت تُحيي الأعراس في دمشق آنئذٍ، هي فرقة «بنات مكنو اليهود»، وكان سكان حيّ الوردات قد سمعوا كثيرًا عن هٰذه الفرقة دون أن يروها، فأتاح لهم «درويش آغا القادري» رؤيتها بمناسبة عرس «عمر العرقسوسي».

ٱنتهىٰ كلام الأستاذ «جمال الفرّا».

ما أروع هٰذا التّعاطف الودّيّ الإنسانيّ، وهٰذا التواضع!.. تأتي زوجة أغنىٰ واحد في الحارة إلىٰ بيت ٱمرأة فقيرة لتقول لها: نحن أهل وأبناء حارة واحدة وٱبنك عمر بمعزّة ٱبننا أيمن!

أمّا إذا كانت العروس من طبقة دون الوسطىٰ أو فقيرة، فكانت ترتدي يوم عرسها أحسن ثيابها. أمّا العروس الغنيّة فكانت ترتدي ثوبًا من القطيفة ـ أيّ المخمل ـ أو الساتان محلّىٰ بتطريز الصِّرما، وكثيرًا ما كان يؤتىٰ ببذلات العرايس من «ٱستانبول»، وكانت ثمينة

جدًّا، لأنّ خيوط التطريز مطليّة بالذهب الخالص، وتظلّ العروس ترتدي هٰذه البذلة في الأفراح إلىٰ ما شاء الله، أو إلىٰ أن تضيق عليها فتبيعَها عندئذٍ بثمن لا بأس به. ولٰكن لمّا أصبحنا نقلّدُ الغرب في كلّ شيء، أصبح حتمًا لزامًا علىٰ العروس أن ترتدي يوم عرسها ثوبًا أبيض كالعروس الغربيّة في عصرنا الراهن. ولا ترتدي العروس ثوبها الأبيض هٰذا إلّا يوم عرسها فقط، أي مرّة واحدة مهما كلّف من الأموال.

في الماضي كانت العروس ترتدي ثوب عرسها كلّما دعيت إلىٰ فرح لمدّة سنة كاملة. بعدئذٍ تحتفظ به ويكرّس للإعارة، ـ لأنّ العروس التي هي من طبقة دون الوسطىٰ أو فقيرة ـ لا تستطيع أن تقتني ثوبًا للمناسبات فقط، فكانت تستعير ثوبًا أبيض ولا غضاضة في ذٰلك أبدًا.

كذٰلك كانت تُستعار الحلي لتُزيِّن العروس. يقال مثلًا: فلانة عندها مجمع صيغة، أي عندها جميع أنواع الحلي، وكانت صاحبة هٰذه الحلي كثيرًا ما تعير حليتها لتزيّن العرائس الفقيرات وأحيانًا تعيرها لعروس لا تعرفها ولا تعرف أهلها. تأتي أمّ العروس إلىٰ إحدىٰ صديقاتها تقول لها: سمعنا أنّ عند بنت عمّك، أو بنت خالك، مجمع صيغة، هل يمكن أن تستعيريه لنا لنزيّن عروسنا يوم عرسها؟

تقول لها: تكرم عينك... وتأتي بالحلي الثمينة دون وصل أو أيّ

ضمان، مجرّد ثقة فقط، وأحيانًا تذهب صاحبة الحلي إلىٰ الأفراح دون أيّ حلية، لأن حليها معارة في أكثر الأحيان.

بمثل هٰذا التضامن كانت العروس الفقيرة تزهو وتنعم يوم عرسها، أيّ يوم فرحة عمرها، كأيّة عروس غنيّة.

كانت العادة أن تُقدَّم هدايا للعروسين تسمّىٰ «النقُوط». أهل العريس كانوا يقدّمون لٱبنهم أشياء كماليّة للبيت، كالأواني الفضّيّة أو الصّينيّة أو السّجّاد، كلّ حسب طاقته. أمّا أهل العروس فكانوا يقدّمون لٱبنتهم حُليًّا ذهبيّة أو نقودًا ذهبيّة أو سجّادة، وكانوا يسمّون هٰذه الأشياء «عقدة»، يعني إذا ٱحتاجت المرأة ذات يوم إلىٰ شيء من المال تستطيع أن تبيع بعض هٰذه الأشياء التي تخصّها هي فتحلّ مشاكلها وتفكّ عقدها، ولذا سمّيت «عقدة» لتفكّ عند اللزوم.

أمّا أهل الحارة، فكانوا يقدّمون لأبي العريس ـ وهو الذي كان يقيم العرس ـ مؤونة: رز، سكر، سمن، زيت، بن، وأحيانًا خاروف (وأعتقد أنّ هٰذه العادة ما تزال متّبعة في بعض القُرىٰ إلىٰ الآن)، لأنّ أبا العريس مضطرٌ لأن يقيم وليمة يوم العرس، ثمّ يُقيم كلّ يوم وليمتين لمدّة سبعة أيّام. لأنّ أهل العروس من النساء كانوا يزورون عند بيت العريس سبعة أيّام كاملة، كذٰلك عدد من أهل العريس، لتقبُّل التّهاني بالعرس، أليس هٰذا كلّه من التضامن الٱجتماعيّ؟

وقد تجلّىٰ هٰذا التضامن أكثر ما تجلّىٰ إبّان الثورة السوريّة الكبرىٰ، وقد ثبت تاريخيًّا أنّ الثورة السوريّة الكبرىٰ ضدّ الٱستعمار

الفرنسيّ لم يأتِها أيُّ دعم من خارج البلاد السوريّة. فقد قام بها السوريّون وحدهم، وكان عدد سكّان سوريا عام ١٩٢٥ لا يتجاوز الثلاثة ملايين نسمة، وقد آستطاعت هٰذه الدولة الصغيرة الفقيرة، بفضل تضحية أبنائها وشجاعتهم، أن تصمد أمام فرنسا الدّولةِ الكبرىٰ سنتين كاملتين.

من كان يعيل أُسَرَ هٰؤلاء الثوّار؟؟

كان يعيلهم أبناء حاراتهم. كان الثائر يلتحق بالثورة وهو مطمئنٌّ علىٰ أسرته، أمّا إذا آلتحق بالثورة عدد كبير من أبناء حارة واحدة، وكانت هٰذه الحارة فقيرة لا تستطيع أن تقدّم العون لأُسَرٍ كثيرة، فكانت تجمع الإعانات سرًّا من أحياء أخرىٰ، وغالبًا بواسطة النّساء اللواتي كنّ يدخلن مخازن التُّجّار محجّبات ويجمعن منهم الإعانات. والحقّ يقال لقد بذل التّجّار كثيرًا من أموالهم في سبيل الثورة السورية علىٰ الرغم من الأزمات الآقتصاديّة المستحكمة آنذاك.

ورد في كتاب «دمشق أيّام زمان» للأديب الأستاذ «عادل أبو شنب» ما يلي:

كانت تجري أمور في حارات دمشق وفق تقاليد قديمة متوارثة، كانت وكأنها قوانين مكتوبة، أذكر كيف كانت أُسَرٌ في حاراتنا تفقد معيلها في الموت غالبًا، فكانت هٰذه الأسرة أو تلك تتلقّىٰ من المحسنين في الحارة معونات لا حصر لها، وقلّما كان المُحسن يُعلن عن نفسه. كان يقرع الباب رجل ويقول للمرأة الثكلىٰ بموت

معيلها: ٱفتحي لي طريق يا أختي، جايبلكن عدل طحين، أو تنكة سمنة، أو تنكة زيت، أو كيس سكر، أو كيس رز، وكان الرجل يُدخل ما يحمله ويضعه في صحن الدّار وينصرف. بهٰذا التقليد عاشت أُسَرٌ كثيرة مفجوعة في حاراتنا الدمشقيّة، كانت تصلها مساعدات يوميّة تقريبًا، بما في ذٰلك مبالغ نقديّة كانت ترسل إليها بواسطة نساء أو رجال يقرعون الباب ويمنحون ما يمنحون دون أن يعلنوا أسماء المُحسنين. وكانت مقولة «ما حدا بموت من الجوع» مطبّقة في حاراتنا بالفعل.

ٱنتهىٰ كلام الأستاذ «عادل أبو شنب».

كان إذا جاء إلىٰ الحارة جار جديد، ٱشترىٰ فيها بيتًا أو ٱستأجر بيتًا، يُرسَل إليه الطعام من قبل أقرب جيرانه لمدّة ثلاثة أيّام، لأنّ صاحبة البيت مشغولة بتنظيف البيت وترتيبه ليس لديها الوقت الكافي لإعداد الطّعام، كانوا يفعلون ذٰلك وهم لا يعرفون بعدُ ذٰلك الجار الجديد، لٰكنه سيصبح جارًا، له عليهم حقُّ الجوار، وكان هو يتقبّل ما يرسل إليه من أشخاص لا يعرفهم بعدُ لأنها عادة متّبعة ومعروفة. وبعد ثلاثة أيّام من مجيئه إلىٰ الحارة يبدأ الجيران بزيارته للتعرّف عليه، الرجال يزورونه في الليل والنساء في النهار.

أمّا إذا لاحظ أهل الحارة أنّ في حارتهم بيتًا سيِّئَ السّمعة، فكانوا يرسلون إلىٰ صاحب البيت وفدًا يمثّل الحارة ليبلغه أنّ وجوده في حارتهم غير مرغوب فيه، فإمّا أن يرحل عن الحارة بالستر

والسلامة وإمّا أن يخرجوه منها بطرقهم الخاصّة. فإذا أبىٰ الرحيل راحوا يسلّطون عليه صبيان الحارة يضعون القاذورات أمام باب بيته فلا يستطيع الدخول أو الخروج إلّا بصعوبة بالغة، يقذفون شبابيكه بالحجارة، يدلقون الماء القذر علىٰ من يدخل بيته أو يخرج منه، وهٰكذا... حتّىٰ يرحل عن الحارة مضطرًّا!

إذا شعرت إحدىٰ نساء الحارة أنّ جارتها فوجئت بضيوف في ميعاد الغداء أو العشاء، فكانت ترفدها حالًا بسكبة من عندها أي تبعث إليها بشيء من الطعام، فربّما كانت جارتها غير مستعدّة لتهيئة مائدة لضيوف. فالضيوف كانوا يأتون غالبًا علىٰ غير موعد، لأنّه لم تكن حينئذٍ تلفونات لأخذ المواعيد.

وكثيرًا ما كان الجيران يتبادلون السكب وبخاصة في شهر رمضان، لأنّ الصائم يلذّ له أن يفاجأ بأكلة غير منتظرة، والطعام الذي يُهدىٰ غالبًا من المشهّيات أو من الأنواع التي يحتاج إعدادها إلىٰ جهد وبراعة في الطبخ كأكلة القَبَوات والمشمشيّة أو البسماشكات أو أنواع الكُبَب.

كان ٱبن الحارة يدافع عن ٱبن حارته ظالمًا أو مظلومًا، ويحميه من أيّ سوء وكأنّه أخ له. في كتاب «عاشها كلّها» للدكتور «كاظم الداغستاني» وردت هٰذه الحادثة:

أيّام الثورة السوريّة، وفي ليلة حالكة السواد قارصة البرد، مرّ من حارة السكّة في حيّ الصالحية أربعة ثوّار كانت مهمّتهم ٱختطاف

طبيب من حيّ آخر كان قد أبىٰ أن يعمل مع المجاهدين في مواقعهم الجديدة، ولمّا لم يجدوا الطبيب في داره عادوا عن طريق حارة السكّة أيضًا، فٱقترح أحدهم كي لا يعودوا خائبين أن يختطفوا ٱبن الداغستاني عساه يفتدي نفسه بما يستطيع من المال. فعارض هٰذا الاقتراح «برّو النيني» أحد هٰؤلاء الثوّار وٱبن حارة السكّة أشدّ المعارضة، ولٰكن رفقاءه أصرّوا علىٰ تنفيذ ما عزموا عليه، وجاؤوا بسلّم من أحد البيوت وألقوه علىٰ جدار بيت الداغستاني، وهَمَّ أحدهم بتسلّقه، فما كان من «برّو النيني» إلّا أن ٱستلّ خنجره المجدلاني بيده اليمنىٰ، وأشهر مسدسه بيده اليسرىٰ وصاح برفاقه بصوت سمعه بعض من كانت نوافذ بيوتهم تطلّ علىٰ الطريق ونقلوا الحديث في اليوم التالي إلىٰ بيت الداغستاني: ليس هٰذا من المهمّة التي عُهدت إلينا، وبيت الداغستاني هم أبناء حارتي، وإخوتي بالرضاع، وأنا أعرف وأنتم تعرفون أنهم أعطوا من مالهم للثورة فوق طاقتهم. فمن شاء أن تُوَلْوِل عليه أمّه هٰذه الليلة فليقترب من هٰذا السلم، وليتخطّ هٰذا الجدار إذا ٱستطاع. ورأىٰ زملاء «برّو النيني» ما حزم عليه أمره، وقد عرفوه وٱختبروه إذا قال فعل. فلم يَنْبِس أحدهم ببنت شفة. فٱقترب هو من السلّم وألقاه جانبًا وبقي واقفًا شاهرًا سلاحه حتّىٰ مشوا فمشىٰ وراءهم.

ٱنتهىٰ كلام الدكتور «كاظم الداغستاني».

حتّىٰ اللصّ كان لا يسرق أبناء حارته، إنما كان يسرق من حارة أخرىٰ!

* * *

اَعتاد الشباب أن يتحرّشوا أحيانًا بالصبايا فيتبعوهنّ في الطرقات الخالية، ويُسْمعوهنّ كلمات غزليّة، وكثيرًا ما كانوا يفتعلون الزحام ليحتكوا بهنّ أو يلمسوهنّ أو يقرصوهنّ، لٰكن بنت الحارة كان لها حرمة خاصّة عند أبناء حارتها، فلا يمكن أن يغازلها واحد منهم لأنّه يعتبرها بمثابة أخته تمامًا. ولٰكن لا نستطيع أن نجزم بمثل هٰذه الأمور، قد يُعجَب اَبن الحارة، أو بالأحرىٰ اَبن الجيران، ببنت الجيران ويرغب في مغازلتها، وقد تستجيب هي أيضًا لمغازلته، ولٰكن إذا حدث شيء من هٰذا فكان يحدث سرًّا ويمنتهىٰ السرّيّة، وقلّما يستطيع أحد اَكتشافه، وإذا اَكتشف فويلٌ للاَثنين!...

بهٰذه المناسبة أحبّ أن أروي لكم هٰذه الحادثة الطريفة التي جرت في «حارة السكّة» (في حيّ العفيف).

أنا بنت حارة السكّة، تزوّجتُ في حيّ المهاجرين، فكنت حين آتي لزيارة أهلي آخذ «الترام» النازل من المهاجرين، وأنزل منه في موقف له قرب مدخل حارة السكّة وأمام دار الطيّب الذكر المرحوم الدكتور «رضا سعيد». قرب هٰذا الموقف كان يقف بائع «ذُرَة» اَسمه «محمّد الطرّاب»، وكان شابًّا مرحًا أنيس الوجه، ولٰكنّ المسكين كان قد فقد ساقه في حادث سيّارة، فكان يضع حلّة الذُّرة بين دكّان الحمصاني «سعدو قزازيّة» ودكان الخضري «مجْمِجُها»، وعن

يمين الخضري تأتي دكان «أبو حاتم اللحّام»، وعن اليسار بعد قليل دكان «أبو صادق الطّرودي».

كان «محمّد الطرّاب» هٰذا يقف أمام حلّة الذُّرة، واضعًا عكّازه تحت إبطه، يقلّب عرانيس الذُّرة بملقط ويغازل المارّات بندائه علىٰ الذُّرة، فإذا مرّت سيّدة ذات قوام جميل كان ينادي وهو يُلوِّح بأطول عرنوس ذُرة بيده:

ـ ريته يسلم ها الطول يا درا!.

لا مأخذ عليه أبدًا، فهو ينادي علىٰ الذُّرة!.

وكنت مغرمةً بنداءات «محمّد الطرّاب» هٰذه، حتّىٰ حفظتها كلّها. وقد تمرّ أحيانًا سيّدةٌ قصيرة ولٰكنّها جميلة، لأنّ الحجاب بدأ يَشِفُّ في أوائل الأربعينات حتّىٰ أصبحت تظهر من خلاله معالم الوجه واضحةً تمامًا، كان ينادي لها «محمّد الطرّاب»:

ـ والله حلوة ومكبّسة ها الدرا!

بعد قليل تمرّ فتاة في أوّل طلعتها، حديثة عهد بالحجاب، فإذا «محمّد الطرّاب» ينادي:

ـ طاب أوانك يا درا، والله طاب!..

أمّا إذا مرّت سيدة جميلة ولٰكنها متقدّمة بالسنّ قليلًا، فإنه ينادي:

ـ تعال وَدِّعْ، الأكلة والوداع!

وعندما تمرّ سيّدةٌ شقراء، كان ينادي لها:

ـ شعرك شباشيل الذّهب يا درا!

ولٰكن عندما تمرّ سمراء جميلة لا يُعفيها «محمّد الطرّاب» من غزله، كان ينادي لها:

ـ سمره ومزكّايه ها الدرا!

والذُّرة المسلوقة عمرها ما كانت سمراء!!

وعندما تمرُّ فتاة ليست جميلة، ولٰكنها لعوب يُسمع لنقراتِ كعبها العالي علىٰ الرصيف عربداتٌ موزونة، فإنه يتأمّلها مليًّا، ثمّ يصرخ:

ـ تعال اتفرّجْ، لهاليبو ها الدرا، والله لهاليبو!.

كان أصحاب الدكاكين، كلّما نادىٰ «محمّد الطرّاب»، يتركون الميزان والزبائن ويمدّون رؤوسهم من دكاكينهم، ليروا هل ينطبق النداء علىٰ السيّدة المارّة أم لا؟.. حتّىٰ السمّان «أبو صادق الطرودي»، الرجل الوقور المعدّل المتّزن، كان أيضًا يترك الزبائن ويمدّ رأسه من دكّانه ويعاين السيّدة المارّة بنظرات فاحصة، فإذا وجد أنّ النداء جاء في محلّه هزّ رأسه هزّات رضا، وعاد إلىٰ عمله.

أمّا عندما كنت أمرُّ، فإنّ «محمّد الطرّاب» كان يغُضُّ الطّرف

ويصمت عن النداء. ولو مرّت أثناء مروري سيّدةٌ تستحقّ أن ينادي لها، فإنه يظلّ صامتًا حتّىٰ أدخل بيتنا. وكان لا يبعد عن حلّة الذُّرة إلّا قليلًا، خشية أن يقع ٱلتباس، فالقضيّة حسّاسة جدًّا: أنا بنت الحارة، بنت فلان وأخت فلان وفلان، ولو سكنتُ في حيّ آخر أظلُّ متمتّعةً بهذا الآمتياز، أيّ أنا بمثابة أخت لـ «محمّد الطرّاب»، أيّ عرضه عرضي..

ذات مرّة أتيت لزيارة أهلي، نزلت من الترام، وكنت آتي من جهة الغرب ووجه «محمّد الطرّاب» متّجهٌ نحو الشرق، فلا يراني حتّىٰ أمرّ من أمامه، وإذا إحدىٰ صديقاتي تبرز من الحارة التي كانت علىٰ كتف دكان الحمصاني «سعدو قزازيّة»، وتمرّ من أمام حلّة الذُّرة وتقف عند موقف الترام، أيّ إلىٰ جانب «محمّد الطرّاب»، تنتظر الترام الصاعد إلىٰ المهاجرين، وكانت صديقتي هٰذه من أجمل بنات دمشق، وأكثرهنّ أناقة.

وقفت أنا متواريةً خلف عمود كهرباء، بحيث لا تراني هي ولا يراني «محمّد الطرّاب»، لأنه لو رآني سيصمت عن النداء، وكنت حريصةً جدًّا علىٰ سماع ماذا سينادي لصديقتي الجميلة هٰذه؟ وأذكر أنها كانت في العشرين من عمرها ترتدي معطفًا أبيض، وقد أسبلت علىٰ وجهها نقابًا كحليًّا من الموسلين الشفّاف جدًّا راح ينشر علىٰ وجهها ظلالًا بنفسجيّة فاتحة تزيد جمالها جمالًا.. راح «محمّد الطرّاب» ينظر إليها صامتًا، مصوّبًا نظره نحوها وعكّازُه تحت

إبطه، ذاهلًا، مأخوذًا، تلوح في عينيه ابتهالاتٌ كأنّه صوفيّ يتعبّد في محراب، يتأمّل بخشوع القوام الفارع المتناسب، الشعر الأشقر اللامع، العينين الزرقاوين المشعّتين. وكان الخضري «مجمجها» يمدّ رأسه من الدكّان، ويصرخ، وكانت في صوته خنّة:

ـ محمّد! ما تنادي! ولَكْ شو صار لك؟!..

محمّد أُرتِجَ عليه، لم يعد يجد في قاموسه صفةً تليق بهٰذا الجمال الصارخ الواقف إلىٰ جانبه، إلىٰ أن وصل الترام وهمّت السيّدة بالصعود إليه، عندئذٍ أسعف الله «محمّد الطرّاب»، فصرخ بكلّ ما لديه من قدرة علىٰ الصراخ:

ـ ولكْ ريتك تقبريني يا درا!!!

مضىٰ علىٰ هٰذا الحادث أكثر من خمسين عامًا، والسيّدة التي أحدّثكم عنها موجودة بيننا الآن، ولٰكن لن أدلّكم عليها، إني أراها تتذكّر وتضحك، لأنها سمعت النداء يومئذٍ وعرفت أنها هي المعنيّة به، والحسناء لا تنسىٰ كلمات المديح أبدًا ولو جاءت من بيّاع ذُرة قبل خمسين عامًا.

* * *

كانت دكاكين الحرفيّين منتشرةً في حارات دمشق جميعها، وكان لهٰؤلاء الحرفيّين عاداتٌ وتقاليد لا يشذّون عنها أبدًا. وكان لكلّ حرفة شيخ يدير شؤونها ويحلّ المشكلات التي لا بدّ أن تقع

بين المعلّمين والصُّنّاع والأُجَراء، ويكون واسطة بين أهل حرفته والدولة. وكان يُنتخب بالتزكية، ويُشترط فيه أن يكون ذا مروءة، ودين، ونخوة، حَسَنَ السيرة، معروفًا بكرمه وشجاعته، وهو بمثابة رئيس نقابة في عصرنا هٰذا.

للدكتور «أحمد أمين» بحثٌ طريف حول هٰذه الظّاهرة نُشر له في كتاب عنوانه: «الصعلكة والفتوّة في الإسلام» صدر عن سلسلة إقرأ. ويَعْتَبِرُ الدكتور شيوخ الحرف في عداد الفتيان الذين يسمّونهم في مصر «فُتُوَّة»، وهي كلمة مرادفة لكلمة «قبضاي» أو «زكُرْت» في لهجتنا الشاميّة العاميّة. وكان لهم تقاليد يُرْجِعُ الدكتور أصولها إلىٰ أيّام الفاطميّين، وظلّت مراسمها وطقوسها سائدة في مصر، وبلاد الشام، وتركيّا، لا تختلف عن بعضها إلّا قليلًا إلىٰ أوائل هٰذا القرن حيث ٱستبدلت بها النّقابات.

كان الصّانع لا يستطيع أن يصبح معلّمًا ويفتح دكّانًا حتّىٰ يأذن له شيخ الحرفة، وما كان هٰذا ليأذن إلّا بعد أن يأخذ رأي معلّم هٰذا الصانع فيما إذا أصبح هٰذا الصانع يتقن حرفته تمامًا، وأهلًا لأن يكون معلّمًا يُؤتمن علىٰ مصالح النّاس وأموالهم، فإذا جاء الجواب بالإيجاب تُقام عندئذٍ لهٰذا الصانع حفلةٌ تسمّىٰ «حفلة الشدّ»، ولها رسم عليه أن يدفعه لصندوق الحرفة. وكانت تقام هٰذه الحفلة عادة لعدّة صُنّاع ينتسبون إلىٰ حرفٍ مختلفة في يوم واحد، في أحد بساتين الشام، وكان يُدعىٰ إلىٰ هٰذه الحفلة معلّمو الحرف

وصنّاعهم، وشيخ مشايخ الحرفيين، وشيوخ الحرف كلّها. وبعد الطّعام كان يُؤتىٰ بالصُّنّاع، المرشَّحين ليصبحوا معلّمين، مَوْثوقي الأيدي، ويكون جميع الحاضرين جالسين علىٰ ركبهم مطرقي الرؤوس ليكون للموقف جلالٌ ورهبة.

ويقف شيخ الحرفة ويقول:

ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم. لنبدأ أيها الأخوان عملنا..

ثمّ يقرأ الفاتحة، ويتمتم جميع الحاضرين بقراءتها. ثمّ يتقدّم من الصّانع الذي يعمل في حرفته فيفكّ وثاقه، ويركع هٰذا أمام شيخ الحرفة نصف ركعة، ويركع الشيخ أيضًا، ويتلاصقان حتّىٰ تمسّ الركبتان بعضهما، ثمّ يمسك الشيخ بيد الصّانع مسكة خاصّة متعارفًا عليها فيما بينهم، ويتعاهدان علىٰ الأخوّة، ثمّ يُعيَّن أحد المعلّمين أبًا لهٰذا الصّانع يأتمر بأمره، ويسأله النصح والتوجيه. وربّما يصبح الصّانع علىٰ صلة طيّبة مع هٰذا الأب الروحيّ أكثر مما هو مع أبيه الحقيقيّ.

فإذا آنتهت هٰذه الطُّقوس يُلقي شيخ مشايخ الحرفيّين خطابًا، ينصح فيه الصُّنّاع الذين أصبحوا معلّمين بعد حفلة الشدِّ هٰذه، يقول في خطابه فيما يقول:

ـ يا بنيّ إنّ جميع أهل الحرف أمناء علىٰ الأعراض، والأرواح، والأموال. والأمانة هي الدِّين، فكُنْ صادقًا أمينًا، وآعلم أنّ كارك مثل عرضك فحافظ عليه، وإذا آستلمت أموال الناس فلا تفرّط فيها، وإيّاك أن تخون أهل حرفتك، والخائن مسؤول أمام الله.

وفي كتاب «دمشق في مطلع القرن العشرين» «لحلمي العلّاف» فصل عن مهنة المنجِّدين يذكر فيه كيف يؤدِّب المنجّد أجيره الذي سيصطحبه معه إلىٰ بيوت الناس، فيبدأ أوّلًا بمراقبة أوضاعه، سعاله، عطاسه، جلوسه، لهجته، نظافته، ويوالي إسداء النُصح إليه بكلّ صرامة، والسّوط إلىٰ جانبه، فإذا رأىٰ شذوذًا نزل بالسّوط علىٰ يديه ورجليه، وبخاصة إذا لم تكونا نظيفتين، ثمّ يراقب طعامه ويقوِّمه، ويصحِّحه بأن يطلب منه أن يأكل بأدب فلا يُشرك كفّه وأصابعه كلّها عندما يأكل بيده، وإذا أكل بالملعقة فلا يدخلها إلىٰ آخر فمه، وأن لايبحث عن اللحم، وأن يأكل ممّا يليه، وأن يحاول جهده فلا يُسمع صوت مضغه، وأن يغسل يديه قبل الطعام وبعده.

ثمّ يقول له:

ـ عندما تراني كففت عن الطعام فاْكفُفْ أنت أيضًا.

فإذا وثق من تأديبه اْصطحبه معه إلىٰ بيوت زبائنه.

وكانت العادة أن يكون لكلّ حرفة صندوقٌ يودَع عند شيخ الحرفة، فيه أكياس مختلفة الألوان تُحفظ فيها أموال الحرفة، ومن هٰذا الصندوق يصرف علىٰ العاجزين من أبناء الحرفة، فهي كالضمان الاْجتماعيّ في عصرنا هٰذا.

كانت كلمة شيخ الحرفة نافذة علىٰ أبناء حرفته لا يخالفونه أبدًا. ومن قِبَل ذٰلك ما رواه المؤرِّخ «الجبرتي» عن «حجّاج» الخضري، شيخ الخضريّة في مصر، الذي شنقه والي مصر دون ذنب جناه، لأنّه

ـ أي الوالي ـ وجد شيخ الخضريّة هٰذا منافسًا له، يستمع له الحرفيّون أكثر مما يستمعون للوالي نفسه.

كان للحرفيّين في دمشق اَجتماعٌ عامٌّ يعقد في أوّل شهر أيّار من كلّ عام، ويُعلَن عنه قبل خمسة عشر يومًا، وله جدول أعمال، تسبقه اَجتماعات لكلّ حرفة علىٰ حدة. وكان يدعىٰ إلىٰ هٰذا الاَجتماع وجهاء البلد، ويُقام مطبخٌ عظيم يُعِدُّ الأكل لجميع الحاضرين. وقد حضر قنصل هولندا حفلة شدَّ فرأىٰ أنّ هناك تشابهًا كبيرًا بين هٰذه النُّظُم والتقاليد وبين نُظُم الماسونيّة وطقوسها. وتساءل القنصل:

ما هي العلاقة بين تلك النُّظم؟؟.. وهل أخذت الماسونيّة نُظمها من نُظم الحرفيّين أم بالعكس؟ وإذا لم تكن هناك علاقة فكيف تشابهت تلك النظم إلىٰ هٰذا الحدِّ؟؟..

ورجا القنصل الباحثين أن يجيبوه عن أسئلته تلك. ويقول الدكتور «أحمد أمين»: ولٰكني لم أرَ بحثًا يُجيب عن هٰذه الأسئلة...

* * *

من الحوادث الطريفة اللطيفة، التي كان يتوارثها شيوخ حيّنا في الصالحيّة، هٰذه الحادثة: اَحترق بيتُ أحد البساتنة وموسمُهُ كلّه، حتّىٰ لم يبق عنده شيء يُقيم به أودَهُ، وكان الرجل عزيز النفس، كريمًا مئنافًا، يصعب عليه أن يمدَّ يده إلىٰ أحدٍ ولو كان من أعزّ

أصدقائه، فجمع شيخ البساتنة بساتنة دمشق جميعهم ليتداولوا فيما بينهم ويجدوا طريقة يمكنهم بها أن يساعدوا هٰذا الرجل المنكوب دون أن يجرحوا كرامته.

وبعد تفكير طويل آهتدىٰ شيخ البساتنة إلىٰ حلٍّ مناسب، وهو أن يمتنع بساتنة دمشق جميعهم عن زراعة البقدونس سنة كاملة، ويَدَعُوا هٰذا الرجلَ المنكوب يحتكرها وحده، ولن يخسر البساتنة شيئًا يذكر، فماذا تغلّ مسكبة البقدونس للواحد منهم؟؟..

وما تمضي السنة حتّىٰ يُعَوِّض الرجل خسارته كلّها من زراعة البقدونس، وسُمّيت أسرته منذ ذٰلك الحين «بيت بقدونس»، وما تزال هٰذه الأسرة في دمشق تحمل هٰذا اللقب: «بيت بقدونس» إلىٰ الآن، وقد أنجبت هٰذه الأسرة عددًا من الأساتذة والمحامين والأدباء.

هٰذا التصرّف اللّبق الذي صدر عن شيخ البساتنة في دمشق لا يمكن أن يصدر إلّا عن دمشقيٍّ أصيل، فما عن عبثٍ يقال فلان «مُدَمْشَق»، إذا كان كَيِّسًا، لطيف المعشر، حلو الشمائل، لبق التصرّف. كما يقال لمن يتعاظم ويتبجّح «مُبَغْدَد» نسبةً إلىٰ بغداد. أمّا إذا كان أُلْعُبان، كثيرَ المكر والخداع، قيل عنه «مُدَمْيَط» نسبة إلىٰ دمياط في مصر!

إنّ البلاد تُضفي من صفاتها علىٰ أبنائها، فآعتدالُ الطقس عندنا، وجمال الطبيعة، جعل الدماشقة دَمِثي الأخلاق، ليِّني العريكة، بعيدين عن العنف والقسوة، يؤثرون المجاملة والمصالحة.

قال أحد الشعراء:

إنّ الهواء إذا رقّت مناسمُه
في بلدةٍ، لَطُفَتْ أخلاق أهليها

من الشخصيّات المرموقة في الحارة شخصيّة «الحلّاق»، كانت دكّانه بمثابة ندوة يجتمع فيها الزبائن ويتبادلون الأحاديث. ومن مستلزمات مهنة الحِلاقة أن يسلِّي الحلّاق زبائنه، فكان يجمع الأخبار من سياسيّة وآجتماعيّة، وفضائح، ونوادر، يرويها لزبائنه أثناء قيامه بعمله. وهٰذه العادة قديمة جدًّا عند الحلّاقين، فقد ورد في كتاب «ألف ليلة وليلة» حكاية «مزيِّن بغداد»، وهي تروي حكاياتٍ عن لسان حلّاق ثرثار كان يرويها لزبائنه، وتُعتبر حكاية «مزيّن بغداد» من أحلىٰ حكايات الليالي.

ولعلّ من أطرف الكتب التراثيّة وأهمّها عندنا كتاب «الحلّاق البديري»، وقد دوّن «البديري» في كتابه هٰذا ما كان يُروىٰ في دكّانه يوميًّا، فآستطاع أن يؤرِّخ لنا ما أهمله التاريخ في تلك الآونة، ويعطينا فكرة صادقة عن رأي الشعب في حكّامه آنئذٍ، وعن الأوضاع الآجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة في تلك الآونة.

ولا يقتصر الحلّاق علىٰ قيامه بمهنة الحلاقة فقط، كان يمارس الطبّ أيضًا، فكان يقلع الأضراس والأسنان، ويعالج اللُّوَزَ، ويَفْصِد الدَّم، ويقوم بالحِجامة، ويداوي القرعاء، ويبيع ديدان العَلَق... إلىٰ آخره. لأنّ أهل الحارة كانوا لا يذهبون للمعالجة عند الطبيب إلّا في الحالات

المستعصية جدًّا. ولا يعلم إلّا الله كم كانت ضحايا هٰؤلاء الحلّاقين!!..

* * *

إنّ ما ذكرتُهُ من عادات وتقاليد الحارات الشاميّة القديمة، اقتصر علىٰ بعض العادات المتّبعة، وعلىٰ التعاطف الودّيّ، والتضامن الاجتماعيّ الذي كان يشمل أبناء الحارة الواحدة. ولٰكن كان هناك أيضًا عاداتٌ وتقاليدُ كثيرة لا يتّسع الوقت لذكرها، كالعادات المتّبعة في الأعياد، والمولد النبويّ، ومناسبات الحجّ والزفاف، والولادة والختان، والحمّامات وإلخ... وقد ذكرت أكثر هٰذه العادات في قصصي القصيرة، وفي روايتي الطويلة «دمشق يا بسمة الحُزن».

أعتقد أنّ ما ذكرته لكم كان إيجابيًّا كلّه، ولٰكن كان هناك أيضًا بعض السلبيّات ولٰكنها تظلّ قليلة جدًّا. من هٰذه السلبيّات أنّ ساكن الحارة لا يشعر أنّه حرٌّ بتصرّفاته أبدًا، بل كان يشعر دائمًا أنه مُراقب من أهل حارته جميعهم. مثلًا:

فلانة قامت البارحة لتؤدّي صلاة الفجر تَصادَف أنّها طلّت من الشبّاك فرأت جارها الحاج «عبد اللطيف» يعود إلىٰ بيته مع طلوع الضوء سكران طينه، حيط يصدّه، وحيط يردّه.. في اليوم التالي يعمّ الخبر الحارة كلّها.

فلانة تخرج من بيتها كلّ يوم، والبارحة خرجت قبل الظهر،

وبعد الظهر أيضًا، إلىٰ أين تذهب؟ أليس لديها في بيتها واجبات تقوم بها؟.. وبعد التقصّي الطويل تبيّن لأهل الحارة أنها تعمل سِرًّا عند خياطة في حيٍّ آخر بالأجرة، لتُعين زوجَها الموظّف الصغير ذا الدخل المحدود، والمتحدِّر من أسرةٍ عريقة لا تسمح لنسائها أن يعملن بالأجرة، ويرتاح بال أهل الحارة من جِهَتِها..

قالت إحدىٰ الجارات لجارتها:

ـ أرأيت؟ البارحة زار بيتَ جارنا فلان جماعةٌ بينهم بنات وشباب مزَنْطَرين (المزنطرين هم الذين يرتدون ثيابًا غير محتشمة، أو يقومون بحركات تُنافي الآداب)، كان منظر هٰؤلاء المزنطرين، وهم يسيرون في الشارع، يَقْشَعِرُّ منه البدن!.. ما علاقة جيراننا المحشومين الأوادم بهٰؤلاء المزنطرين؟؟..

تُجيبها جارتها:

ـ ربّما سيخطب اَبنُهم بنتًا مزَنْطَرة، من اللواتي رأيناهنّ البارحة من الشبّاك، ويأتي بها إلىٰ حارتنا، فتعلِّم بناتنا الزَّنْطَرة.

تجيبها جارتها أمّ البنات الخمس:

ـ كشْ برّةْ وبعيد، يترك بنات حارته، المحشومات، الأوادم، ويتزوّج بنتًا مزنطرة؟!.. وتفكّر قليلًا ثمّ تقول: لا يستطيع أحد أن يأتينا بالخبر اليقين سوىٰ الدّاية «أمّ إبراهيم». سأطلب منها أن تزورهم وتستنزلهم بطُرُقها الخاصّة حتّىٰ تعرف كلّ شيء...

في اليوم التالي تعود «أمّ إبراهيم» بالخبر اليقين، وهو أنّ هٰؤلاء

الجيران الأوادم لهم أقرباء يسكنون في تركيّا، وتركيّا تحرّرت من الحجاب قبل سوريا بسنواتٍ طويلة، وقد جاءوا من تركيّا لزيارة أقربائهم في دمشق.

ويرتاح بال أهل الحارة، لا سيّما أمّ البنات الخمس.

ومن السلبيّات أيضًا «الكُونة» ولا أدري مصدر هٰذه التسمية، فقد بحثت عنه في القواميس فلم أجد تفسيرًا لهٰذه الكلمة. أمّا المفهوم العاميّ لكلمة «كونة»، فهو أن يقوم فتيان الحيّ ـ أو بالأحرىٰ المراهقون ـ بمهاجمة فتيان حيٍّ آخر، فيقذفوهم بالحجارة، والمقاليع، والنقّيفات، ومن يهرب من المعركة يُعتبر مهزومًا.

ولا أدري كيف كان يَقبَل عقلاء الأحياء بمثل هٰذا التصرّف الصبيانيّ الخطر، الذي كان يؤدّي أحيانًا إلىٰ إصابات بجروح خطرة قد تُفضي إلىٰ الموت!.. إلّا إذا كانوا يعتبرون أنّ «الكونة» نوعٌ من الرياضة، تعلّم الفتيان الشجاعة والصبر علىٰ المكاره، والكرّ والفرّ، ولذّة النصر، وتحاشي ذلّ الهزيمة.

* * *

يبدو أننا كلّما أوغلنا في هٰذه الحضارة الجديدة الوافدة إلىٰ بلادنا، شعرنا ـ علىٰ الرغم من التقدّم الحضاريّ المرموق ـ بفداحة بعض ما فقدنا من عاداتنا وتقاليدنا، فنزداد حنينًا إلىٰ الماضي.

من أجل هٰذا كلّه راحت تصدر، في الآونة الأخيرة، كتبٌ كثيرة

تتحدّث عن دمشق الماضي، وعن العادات والتقاليد السائدة آنذاك، والتي تعبّر عن الشعور الإنسانيّ نحو الغير، وعن الشهامة والمروءة والنخوة، تلك الصفات الرائعة التي كانت تسود مجتمعنا الدمشقيّ القديم.

أذكر من هٰذه الكُتب: كتاب «عاشها كلّها» للدكتور «كاظم الداغستاني»، «يا مال الشّام» للسيّدة «سهام ترجمان»، «دمشق في مطلع القرن العشرين» «لحلمي العلّاف»، «حديث دمشق» للأستاذ «نجاة قصّاب حسن»، «الخروج من الجنّة» للدكتورة «ناديا خوست»، «دمشق أيّام زمان» للأستاذ «عادل أبو شنب»، «مقتطفات من تاريخ دمشق» للأستاذ «هاني الخيّر»، «الله يعمرك يا حيّ الوردات» للأستاذ «جمال الفرّا»، وكُتُب السيّد «منير كيّال»... وغيرها، وغيرها...

هٰذا عدا عن الروايات، والقصص، والمسلسلات الإذاعيّة والتلفزيونيّة، التي تدور أحداثها أيّام دمشق الماضي، كروايات «خيري الذّهبي»، و«عادل أبو شنب»، و«سلمىٰ الحفّار الكزبري»، و«ناديا خوست»... وغيرهم، وغيرهم...

عسانا، إذا قرأنا هٰذه الكتب، أن نستعيد بعض هٰذه الصّفات، التي تتلاءم مع الحضارة الحديثة التي آندفعنا فيها بلا هوادة!...

المرأة والقيادة في الإسلام

أُلقيت هذه المحاضرة في «مكتبة الأسد»
بتكليف من «جمعيّة أصدقاء دمشق»، مساء ٤ ـ ٥ ـ ١٩٩٥.

المرأة والقيادة في الإسلام

إنّ الذي دفعني إلىٰ ٱختيار هٰذا الموضوع أمران، هما:

كتاب الباحثة المغربيّة السيّدة «فاطمة المرنيسي»: «السلطانات المنسيّات في الإسلام، نساء رئيسات دولة في الإسلام»، وهو كتاب هامّ جدير بلفت النظر إليه، والحديث عنه.

وقد يقول قائل: لقد تجاوزنا هٰذه المرحلة، فما فائدة الحديث عنها؟.. وقد أصبحت المرأة المُسْلِمة تتبوّأ مراكز قياديّة في كثير من الدول الإسلاميّة، ففي وقتنا الراهن هناك ثلاث دول إسلاميّة هي: تركيّا وباكستان وبنغلادش، تتبوّأ فيها المرأة أكبر مركز قياديّ في الدولة هو رئاسة الوزارة.

ولٰكننا لا نزال في أوّل الشوط، عندنا، في سوريا مثلًا، ثلاثون وزيرًا ووزيرتان فقط، وفي مجلس النوّاب مئتان وستة وعشرون نائبًا، وأربع وعشرون نائبة فقط، مع أنّ عدد النساء في سوريا قد يساوي عدد الرجال أو يربو عليه قليلًا. ولا ينطبق هٰذا علىٰ سوريا وحدها،

بل علىٰ جميع الدول النامية أو المتقدّمة حضاريًّا، وقد تختلف النسب بين دولة وأخرىٰ.

قلت في مطلع حديثي: إنّ الذي دفعني إلىٰ ٱختيار هٰذا الموضوع أمران، حدّثتكم عن الأمر الأوّل وهو كتاب الباحثة المغربيّة السيّدة «فاطمة المرنيسي»، وسنعود إليه لاحقًا.

أمّا الأمر الثاني، فمناقشةٌ جرت بيني وبين سيّدةٍ مثقّفة وجامعيّة أيضًا، وهي محجّبة تضع علىٰ وجهها حجابًا أسود كثيفًا جدًّا تكاد لا ترىٰ طريقها من خلاله إلّا بصعوبة، وترتدي جلبابًا أسود عريضًا ينحدر حتّىٰ كاحليها، وقد ألبست يديها أيضًا قفّازين أسودين، فكانت كتلةً من السواد من قمّة رأسها حتّىٰ أخمص قدميها. وهي في ٱعتقادي تمثّل نموذجًا من تيّارٍ جارفٍ راح يجتاح أكثر البلاد الإسلاميّة، وبخاصّة العربيّة منها، ويحاول أن يفرض مبادئه علىٰ العالم الإسلاميّ كما فهمها هو، وأحيانًا بقوّة السلاح، مع أنّ ديننا الحنيف السَّمْح يقول: لا إكراه في الدين.. ومن مبادئ هٰذا التيّار أيضًا فرضُ مثل هٰذا الحجاب علىٰ المرأة لمنعها من المشاركة في شؤون بلادها مهما أوتيت من مواهب.

قلت لهٰذه السيّدة:

ـ هل تعتقدين أنّ المرأة في صدر الإسلام كانت تتحجّب مثل حجابك هٰذا؟ وقد شاركت في الحروب القائمة آنذاك، تسعف الجرحىٰ، تضمّد جراحهم، وتحمل الطّعام والماء إلىٰ المحاربين، وبعض

النساء حملن السلاح.. ودافعن عن الإسلام: «نسيبة بنت كعب» كانت تدافع عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلم بسيفها يوم أُحُد حين تخلّىٰ عنه كثير من الرجال، ولما آنتهت المعركة كان بها ثلاثة عشر جُرْحًا، وفي عهد «أبي بكر» رضي الله عنه آشتركت «نسيبة» في حرب اليمامة ضدّ «مُسيْلمة الكذّاب» وجُرحت عدّة جروح، وقطعت يدها أيضًا، وقتل آبنها، وكان «أبو بكر» رضي الله عنه يسأل عنها، ويزورها في بيتها بين حين وآخر. النساء اللواتي حاربن بالسلاح مع الإمام «عليّ» رضي الله عنه، أما كان منعهنّ من الحرب، ولو إلىٰ جانبه ليبقين محجّبات، وهو أفقه فقهاء الإسلام؟..

أجابتني قائلة:

ـ إنّ للضرورات أحكامًا.

ثمّ قالت:

ـ سأروي لك حادثة لأرىٰ رأيك فيها.

قلت:

ـ كلّي آذان صاغية..

قالت:

ـ لي صديقة تعمل علىٰ الآلة الكاتبة في إحدىٰ الوزارات، وكان لها يدان رخصتان بَضّتان، وكانت تعتني بهما، فتطيل أظفارها وتصبغها مرّة بالأحمر القاني ومرّة بالفاتح أو البرتقالي، وتُزيّن أصابعها

بخواتم ملوّنة، وكان مكانها مقابلًا لمكان المحاسب، فقال لها مرّة: أرجوك يا آنسة أن تنتقلي إلىٰ مكان بعيد عني، لأنّني كلّما رأيت أصابعك الرشيقة تداعب الآلة الكاتبة ينشغل بالي فأخطئ بالحساب، أنا الذي ما أخطأت في حساباتي أبدًا.

ثمّ قالت محدِّثتي:

ـ فما رأيك؟؟.. لو لم يكن هٰذا الرجل صريحًا ومؤمنًا لكان أخطأ في حساباته، وربّما أُقيل من وظيفته وخُرب بيته بسبب فتنة المرأة!...

قلت لها ضاحكة:

ـ في اعتقادي أنّ هٰذه المشكلة هي مشكلة الرجل، وليست مشكلة المرأة. لأنّ الرجل اعتاد أن ينظر إلىٰ المرأة كأنثىٰ مُشتهاة فقط!.. هو لا تلفت نظره براعةُ هٰذه الآنسة في الضرب علىٰ الآلة الكاتبة، إنّما يلفت نظره جمالَ ورشاقة أصابعها فقط لا غير!.. كان الأجدر به أن يُغيِّر هو مكانه فلا يطلب منها أن تُغيِّر هي مكانها.

وتتداعىٰ إلىٰ ذهني، تلك اللحظة، حادثةٌ طريفة تشبه هٰذه الحادثة، جرت في أواسط العشرينات من هٰذا القرن، يوم كنّا في المدرسة الإعداديّة، نشبت حينئذٍ معركة حامية في الصحف حول السُّفور، والحجاب. فسألت إحدىٰ الطّالبات أستاذ اللغة العربيّة، وكان شيخًا معمّمًا:

ـ ما رأيك يا أستاذ بقضيّة السُّفور والحجاب؟؟..

أجابها بٱنفعال:

ـ إيّاكنّ يا بناتي أن يفتنكنّ هٰؤلاء المارقون الذين يَدْعون إلىٰ سُفور المرأة.

ردّت عليه طالبة أخرىٰ قائلة:

ـ لٰكن يا أستاذ قد تضطرّ المرأة إلىٰ العمل لتُعيل نفسها إذا لم يوجد من يعيلها، أو لتساعد زوجها أو أهلها إذا كانوا بحاجة إلىٰ المساعدة.

قال متأفّفًا:

ـ توجد أعمال كثيرة خاصّة بالنّساء: الخياطة، التطريز، تعمل قابلة، معلّمة أولاد، ممرّضة، هل تحسبنّ أن العمل في دوائر الحكومة أمر سهل علىٰ المرأة؟؟..

قالت طالبة أخرىٰ:

ـ توجد أعمال سهلة في كثير من دوائر الحكومة، تعمل في الهاتف مثلًا.

فٱبتسم بسخرية وقال:

ـ في الهاتف؟؟.. لو ذهبت أنا لأبعث برقيّة، ووجدت صبيّة حلوة أعجبتني تبعث البرقيات، سأظلّ واقفًا أمام هٰذه الحلوة، أستمتع بجمالها، وأبعث برقيّات إلىٰ العالم، أخترع العناوين كما يخطر ببالي حتّىٰ ينتهي الدّوام، فأكون قد عطّلت أشغالي، وأفلست جيبي، وأخذت دور غيري!!.. هٰذا الذي يأتي من عمل المرأة في الدّوائر الحكوميّة!!..

وكان والله قد تجاوز الثمانين من عمره! حسبنا الله ونعم الوكيل من الرجل العربيّ. أتمنّىٰ، والله، لو يُبعث أستاذنا حيًّا ليرىٰ كيف تعمل المرأة الآن إلىٰ جانب الرجل في البنوك، والشركات، ودوائر الحكومة، والأمور تسير سيرها الطبيعيّ.

عدت إلىٰ محدّثتي فقلت لها:

ـ لا شكّ أنّك تقرئين القرآن بإمعانٍ ورويّةٍ، هل وجدت فيه آيةً واحدة تُحرّم علىٰ المرأة العمل إلىٰ جانب الرجل، أو تحرّم عليها أن تكون قائِدة، أو ملكة؟

قالت:

ـ لا توجد آيةٌ صريحة تحرّم ذٰلك، ولٰكن،

وأُقاطعها أنا قائلةً:

ـ في القرآن الكريم حوارٌ جميل رائع جرىٰ بين ملكة سَبَأ وشعبها، ولم يعلّق عليه القرآن الكريم قط ... وكأنّ هٰذا الحوار يقول لنا، أو بالأحرىٰ يثبت لنا، أنّ المرأة العاقلة الحكيمة أهلٌ لأن تكون ملكةً تقود شعبها إلىٰ ما فيه الخير والصلاح.. عندما جاء طير الهدهد بكتاب النبيّ سليمان عليه السلام إلىٰ ملكة سبأ، لم تلجأ تلك الملكة الحكيمة إلىٰ وزرائها ومستشاريها وخلصائها، إنّما لجأت إلىٰ الشعب كلّه، لأنّ القضية هامّة جدًّا تتعلّق بأمن الوطن كلّه، فقالت كما ورد في القرآن الكريم: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿أيها الملأُ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمرًا حتّىٰ تشهدون﴾ صدق الله العظيم. والملأُ هم الرجال

الذين يملأون العين بعقلهم وتفكيرهم، وهم أهل للمشورة، أي كانت ملكة سبأ ملكة ديمقراطيّة، لا تستأثر وحدها بالحكم إنّما تُشرك فيه الشعب كلّه ممثّلا بعقلائه ومفكّريه. أجابوها كما ورد في القرآن الكريم: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿نحن أولو قوّة وبأس شديد، والأمر إليك، فآنظري كيف تأمرين﴾ صدق الله العظيم. كأنهم يشيرون عليها بالحرب. ولٰكنها كانت أكثر منهم حكمةً وأبعد نظرًا، فقالت: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة، وكذٰلك يفعلون﴾ صدق الله العظيم، أي آثرت المصالحة، لأنها كانت تدرك قوةّ جيوش سليمان عليه السلام، ولمّا تركوا لها الأمر لم تغامر وتدخل في معركة لا تضمن نتائجها. أليس في هٰذا كلّه تمجيد للمرأة العاقلة الحكيمة التي هي أهلٌ للقيادة. إنّ من إعجاز القرآن الكريم أن يعطينا صورة حسّيّة دون أن يعلّق أيّ تعليق بل يترك لنا الحكم عليها. وما كان لنا أن نحكم إلّا كما أراد القرآن الكريم، لم يقل القرآن الكريم أنّ ملكة سبأ كانت عاقلة أو حكيمة، لٰكن الصّورة التي أعطاها عنها تثبت لنا هٰذا الواقع أكثر من أي كلام يقال في هٰذا المجال. وأمثال هٰذه الشواهد كثيرة في القرآن الكريم: في سورة يوسف لم يقل أبدًا أنّ يوسف كان جميلًا بل أعطانا صورة حسّيّة عندما دعت آمرأة العزيز النساء اللواتي كنّ يَلُمْنَها ويتحدّثن عنها كما ورد في القرآن الكريم: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿وأَعْتَدَتْ لهنّ متكأً، وآتت كلّ واحدة منهنّ سكّينًا، وقالت آخرج عليهنّ، فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ وقلن: حاشَ لله ما هٰذا بشرًا إنْ هٰذا إلّا ملك كريم﴾ صدق

الله العظيم. هٰذه الصّورة أبلغ من أيّ كلام يقال في الجمال المذهل.

ولٰكن محدّثتي لم تقنعها حججي هٰذه كلّها، المدعومة بآيات من القرآن الكريم، فقالت:

ـ ورد في الحديث الشريف: لم يُفلح قومٌ ولّوا أمرهم آمرأة.

قلت:

ـ لا شكّ عندي أنّ هٰذا الحديث مدسوس لأمر ما. ومن الذي رواه؟؟ رواه الصحابي أبو بكرة. وكان أبو بكرة رقيقًا لسيّد من سادات الطائف، ولما حاصر الرسول صلّىٰ الله عليه وسلّم مدينة الطائف ثمّ فَكّ الحصار عنها لأنّه أدرك أنّ آقتحامها يكلّف المسلمين ضحايا كثيرة، أعلن قبل أن يغادرها: إنّ كلّ رقيق يعتنق الإسلام يصبح حرًّا. فهرب أبو بكره من سيّده وجاء إلىٰ الرسول صلّىٰ الله عليه وسلم وآعتنق الإسلام، وراح يعمل ويجدّ في عمله حتّىٰ أصبح ميسورًا، ولم يلبث حتّىٰ أصبح أحد أعيان مدينة البصرة.

ولمّا قامت الحرب بين السيّدة عائشه والإمام عليّ رضي الله عنهما، آنحاز أبو بكرة إلىٰ الإمام عليّ، ثمّ روىٰ هٰذا الحديث ضدّ السيدة عائشة. وكان ذٰلك بعد وفاة الرسول عليه الصّلاة والسلام بخمس وعشرين سنة، فما أعظم ذاكرة أبي بكرة هٰذا!!... وكان قد سبق لأمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أن أمر بجلد أبي بكرة ثمانين جلدة في ساحة عامّة لأنه شهد شهادة كاذبة!

وعدا هٰذا كلّه كان لنبيّنا الكريم عليه الصّلاة والسلام نظرة

خارقة لا تخطئ أبدًا. لا يمكن أن يدلي بحديث تثبت الأيّام عكسه، إن في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

يقول مؤرّخو بريطانيا العظمىٰ: إنّ العصر الذهبيّ لبريطانيا هو عصر الملكة فيكتوريا. إذًا قد أفلح البريطانيّون حين ولّوا أمورهم ٱمرأة. قد يقول قائل: لم يكن الفضل للملكة فيكتوريا في إرساء دعائم هٰذا العصر الذهبيّ، إنما كان الفضل كلّ الفضل للرجال العظام الذين كانوا يديرون مملكتها المترامية الأطراف... وقد فاتهم أنّ ٱختيار الرجال ليس بالأمر السهل.

لم أعد أذكر أين قرأت ذات مرّة ما معناه: إنّ أحد ملوك الفرنجة بعث إلىٰ «هارون الرشيد» رسالة يسأله فيها: كيف تدير مملكتك الكبيرة هٰذه دون أن تحدث فيها ٱضطرابات كتلك التي تحدث في مملكتي الصغيرة؟؟.. كان جواب «هارون الرشيد» أربعَ كلماتٍ فقط: أعرف كيف أختار رجالي. فوَضْع الرّجل في المكان المناسب لَهُوَ أمرٌ هامٌّ جدًّا، ويبدو أنّ الملكة فيكتوريا قد أجادت إلىٰ حدٍّ بعيد ٱختيار رجالها. وقد كانت لها دائمًا الكلمة الأخيرة.

كذٰلك قد أفلح الروس أيضًا عندما تولّت أمورهم «كاترين العظمىٰ»، التي تُصنَّف مع أعظم القياصرة الذين حكموا روسيا، فقد ٱستطاعت أن تتغلّب علىٰ المشكلات التي واجهتها وتنهض بروسيا إلىٰ مصافّ الدول العظمىٰ... هٰذا علىٰ الرغم من ٱنحلالها الخُلقيّ المعروف!...

سميراميس ملكة بابل، التي يُعزىٰ إليها إنشاء الحدائق المعلّقة، وإلىٰ الآن يُترنّم بٱسمها ويطلق علىٰ كلّ ما هو جميل ورائع من فنادق وحدائق وغيرها.

الفرعونة «حتشبسوت» من أعظم فراعين مصر، يقول مؤرّخو تلك الحقبة: إنّ عهدها كان عهد سلام ووئام ورخاء فٱنصرفت إلىٰ العمران وأنشأت مِسَلّتين رائعتين في الكرنك، ومعبدًا لا يزال قائمًا إلىٰ الآن يشهد بروعة الفنّ المعماريّ المصريّ في عهدها.. إذن قد أفلح المصريّون حين تولّت أمورهم ٱمرأة.

الملكة كليوبترة ملكة مصر وقصّتها معروفة ومشهورة، ٱسترعت ٱنتباه كبار الأدباء «كشيكسبير»، و«برنارد شو»، و«أحمد شوقي».

وقد أفلح العرب أيضًا حين تولّت أمورهم ٱمرأةٌ هي زنوبيا ملكة تدمر، لم تصل تدمر إلىٰ درجة من العظمة والتوسّع كما وصلت في عهد زنوبيا، فقد شملت تدمر في عهدها شرقي آسيا، وسوريا، والجزء الشماليّ من بلاد بين النهرين، ومصر أيضًا. وكبر ـ مع الأسف الشديد ـ طموحُ الملكة زنوبيا حتّىٰ جرّها إلىٰ الاشتباك بحرب مع روما أكبر ٱمبراطورية حينئذٍ في المنطقة كلّها. ولما بدأت تنهزم لم تستسلم أبدًا. آثرت الاستشهاد أو الأسر علىٰ مذلّة الاستسلام. لأنّه عندما يُسلِّم القادة بلادهم إلىٰ العدوّ عن طواعية لم يعد لأهلها حقّ فيها أبدًا، أمّا عندما تؤخذ عنوة يظلّ الحقّ قائمًا حتّىٰ يأتي جيل قويّ يستطيع أن يستردّ بلاده، ويعيد الحقّ إلىٰ نصابه.

آستولىٰ العرب علىٰ إسبانيا عنوة، ومكثوا فيها ثمانية قرون، وأنشأوا فيها حضارة ما زالت آثارها تبهر العالم إلىٰ اليوم. ولٰكن عندما تفرّقت كلمة العرب، وراح يحارب بعضهم بعضًا، أو يتحالف مع العدوّ ضد أبناء وطنه، ضَعُفت شوكتهم، وقويت شوكة الإسبان، فآستطاعوا أن يستردّوا بلادهم، ويستأصلوا منها شأفة العرب بشتّىٰ أنواع الظلم، والتعذيب اللاإنسانيّ، حتّىٰ لم يبق فيها عربيّ واحد إلّا إذا تنصّر، وتبرّأ من عروبته.

لم تكن المرأة في صدر الإسلام بمعزلٍ عمّا يجري حولها من أحداث سياسيّة، وعقائديّة، وقوميّة، بل كانت تشارك فيها كلّها مشاركة فعّالة، لٰكن يبدو أنه كان هناك تعتيمٌ علىٰ ما يصدر عن النساء من بطولات من قِبل المؤرّخين، يمرُّون بها مرور الكرام، لا يذكرون منها إلّا الهامّ جدًّا دون أيّ تعليق.

ورد في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي أنّه عندما مات الحجّاج وُجد في سجونه ثلاثون ألف آمرأة!... لا شكّ أنّ في تاريخنا كثيرًا من المبالغة، لٰكن لا نستطيع أن نرفض الخبر من أساسه. لو فرضنا أنه وجد ربع هٰذا العدد، أو ثُمنه، لكان عددًا كبيرًا يؤكّد لنا آشتراك المرأة في القضايا العامّة. لٰكن من هنّ هٰؤلاء النساء؟ ما أسماؤهنّ، لماذا سُجِنَّ؟ لا نعرف عنهنّ شيئًا؟ لأنّ هناك، كما قلت، تعتيمًا علىٰ بطولات النساء.

ما عُيِّر الحجّاج بن يوسف، ذٰلك الجبّار العنيد، بالجبن إلّا لما

اَقتحمت عليه غزالة الحروريّة مدينة الكوفة، وكانت علىٰ رأس جيش كبير يضمُّ عددًا كبيرًا من النساء، قد اَعتَقْلن الرماح، وتقلّدن السّيوف، والحرب بالسّيف والرمح ليست بالأمر السهل كالحرب بالبندقيّة، لأنها تحتاج إلىٰ تمرين طويل، وقوّة عضليّة، وشجاعة خارقة. لأنّ العدوّيْن يتقابلان وجهًا لوجه، والغلبة لمن كان أثبت جأشًا.

كانت عميرة زوجة مجاشع الخارجي ترىٰ وجوب الاَشتراك بالحرب، وكان زوجها يرىٰ القعود عنها. فاَضطرّت عميرة أن تتخلّىٰ عن زوجها وتلتحق بالمحاربين، وكتبت إلىٰ زوجها تقول:

أبلـغ مجاشعَ إن رجعـت فإنّنـي
بيـن الأسنّـة والرمـاح مَقيلـي

ووهبت خدْري والفراشَ لكاعبٍ
في الحيّ ذاتِ دمالجٍ وحُجول

ضحَّت عميرة بخدرها، بأعزّ ما تملك المرأة، ووهبت فراشها لمنافسةٍ خطرة في الحيّ ذات دمالج وحجول!... وذلك كلّه في سبيل مبدأ تعتنقه.

جيء بإحدىٰ الخوارج إلىٰ زياد اَبن أبيه، فقال لها:

ـ والله لأحصدنّكم حصدًا، ولأقتلنّكم قتلًا.

فأجابته غير مبالية:

ـ إنّ القتل يزرعنا...

ما أروع هٰذا القول، وما أبلغه، وأصدقه!.. ألا ينطبق علىٰ أطفال الحجارة في يومنا هٰذا؟؟.. كلّما قُتل منهم واحد يزداد العدد في اليوم الثاني. وإلّا لما ٱستطاعوا أن يثابروا علىٰ حربهم الحجاريّة هٰذه ثماني سنوات، لأنّ القتل يورث الحقد الكبير، والحقد يدفع إلىٰ الأخذ بالثأر مهما يكن الثمن باهظًا.

ولمّا همّ السّيّاف أن يضرب هٰذه المرأة الشجاعة بالسيف، سترت وجهها، فقال لها ٱبن زياد:

ـ أتتسترّين وقد فضحك الله؟

أجابته غير مبالية:

ـ بل أنت الذي فضحت أمّك، عندما ٱنتسبتَ إلىٰ أبي سفيان تكون قد ٱعترفتَ بأنّ أباك قد زنىٰ بأمّك!

ما أشجع هٰذه المرأة!... كيف ٱستطاعت أن تظلّ ثابتة الجأش حاضرة البديهة، وهي في جفن الردىٰ؟؟..

وقد شاركت المرأة العربيّة في الحروب الصليبيّة مُشاركةً مرموقة.

ورد في كتاب الاعتبار «لأسامة بن منقذ» أنّ ٱمرأة عربيّة من شيزر ٱستطاعت أن تأسر ثلاثة جنود صليبيّين. أدخلتهم بحيلة دارها ثمّ أغلقت عليهم الباب وقفلته، ثم ٱستنجدت بجيرانها فدخلوا البيت وقتلوهم.

وإنّ ٱمرأة أخرىٰ قتلت زوجها، لأنّه ثبت لها تعاونه مع

الصليبيّين علىٰ أبناء وطنه!... ثمّ آحتمت تلك المرأة بقلعة شيزر حيث يسكن الأمير «أسامة بن منقذ»، ويقول عنها ما معناه: كانت هٰذه المرأة تعيش معنا، وكنّا نعاملها بآحترام كبير.

وما من حادثة تشهد علىٰ وفاء المرأة العربيّة وبطولتها وتمسُّكها بعقيدتها كحادثة «عمرة بنت النعمان بن بشير». عندما قَتَل «مصعبُ بن الزبير» زوجَها «المختار الثّقفي»، أراد مصعب أن يتّهم المختار في دينه، فجاء بزوجته عمرة، وطلب منها أن تتبرّأ من زوجها، وتشهد أنه كان مارقًا من دينه. وكانت عمرة ذات وفاء وعقيدة، فأبت أن تتبرّأ من زوجها، فأمر مصعب أن توضع في حفرة ضيقة وأن يقف السّيّاف أمامها شاهرًا سيفه يُهدّدها بالقتل، وينخزها بالسيف، وإلىٰ جانبه وقف مصعب يحضّها علىٰ أن تتبرّأ من زوجها ويُمنّيها بوعود مغرية، وهي تقول له غير مبالية بالشرّ الذي يحيط بها: كيف أتبرّأ من رجل يقول ربّي الله؟ كان والله صائم نهاره قائم ليله، قد بَذَلَ دمه لله ورسوله. شهادة أرزقها ثمّ أتركها؟؟.. اللهمّ أشهد أني متّبعة لنبيّك، وآبن بنته، وأهل بيته وشيعته، فيضربها السّيّاف، وبعد ثلاث ضربات قويّة ماتت عمرة باقيةً علىٰ عقيدتها، وفيّةً لزوجها. وفيها يقول عمر بن أبي ربيعة:

إنّ من أعجب العجائب عندي
قَتْـلَ بيضـاءَ حـرَّةٍ عُطْبولِ

قُتلـت هٰكـذا علىٰ غيـر جُـرم
إنّ لله درّهـا مـن قتيـلِ

كُتب القتـل والقتـال علينـا
وعلىٰ الغانيات جَرُّ الذيولِ

أليس عجبًا ألّا يوحي إلىٰ هٰذا الشاعر وفاءُ هٰذه المرأة لزوجها، وتُمسُّكُها بعقيدتها، وشجاعتُها أمام التعذيب والموت، شيئًا؟؟!..

فلو لم تكن عمرة بنت النعمان هٰذه بيضاء عطبولًا، والعطبول هي المرأة الفتيّة الجميلة الطويلة العنق، لما وجد الشاعر قتلها من أعجب العجائب ـ ربّما لو كانت قبيحة لأجاز قتلها شرعًا، أو مدح قاتلها بقصيدة عصماء! ـ وهٰذا الشاعر الذي يقول:

كُتب القتـل والقتـال علينـا
وعلـىٰ الغانيـات جـرُّ الذيـول

ما عُرف عنه أنه قاتلٌ أبدًا، ووجد في زمن كان القتال فيه لا يهدأ أبدًا في سبيل الفتوحات، في سبيل السلطة، في سبيل العقائد، ضدّ الظّلم، وإلىٰ آخره... عرفناه يجرّ ذيوله، وهو في أحسن هندام، راكضًا وراء الحسناوات، ليلًا ونهارًا، كما تشهد بذٰلك قصائده الغزليّة الرائعة التي أغنت أدبنا العربي في هٰذا المجال إغناءً مرموقًا، ممّا يجعلنا نغفر له مهما بدا منه!

وإنه لمأخذٌ كبير علىٰ أدبائنا القدامىٰ الذين لم يمجّدوا في المرأة إلّا جمالها وفتنتها، أمّا بطولتها، ووفاؤها، وتمسّكها بعقيدتها، فلم يوحِ

إليهم شيئًا إلّا ما ندر. كأنه كان هناك تعتيم علىٰ بطولة المرأة من قبل الأدباء أيضًا، كما كان من قبل المؤرّخين!

وإنها لمأثرةٌ تذكر لأدبائنا المعاصرين الذين أخذوا يُمجّدون في المرأة بطولتها، وتضحيتها في سبيل وطنها، كما يمجّدون هٰذه الصفات بالرجل تمامًا. وإنّ ما كُتب عن «جميلة بوحيرد»، البطلة الجزائريّة، من شعرٍ ونثر لو جُمع لشكّل كتابًا، وقد أُخرج عنها أيضًا فلم سينمائي. وما كتبه «غسان كنفاني» عن المرأة الفلسطينيّة، ممثّلًا «بأمّ سعد» بطلة قصصه، يعطينا صورة مشرِّفةً جدًّا عن المرأة الفلسطينيّة، وغيره وغيره كثيرون... لقد أوردت ما أوردت علىٰ سبيل المثال لا الحصر.

كذٰلك ما كتب عن «سناء محيدلي» وزميلاتها، اللواتي قمن بعمليّات انتحاريّة في سبيل الوطن، فقد ألقىٰ مرّة الأديب «شوقي بغدادي» في «جمعيّة الندوة الثقافيّة النسائيّة» بدمشق، محاضرةً في هٰذا الصدد، ونظم قصيدة عن «سناء محيدلي» تُمجّد بطولتها، كان لها أجمل الوقع في نفوس السامعين.

ولو جُمع هٰذا كلّه لشكّل أدبًا خاصًّا جديرًا بالدّراسات.

لنعد، الآن، إلىٰ كتاب الباحثة المغربيّة «فاطمة المرنيسي»: «السلطانات المنسيات في الإسلام»، وهو كتاب هامٌّ جدًّا ـ كما قلت ـ وموثّق توثيقًا جيّدًا. وتقصد المؤلّفة بكلمة المَنسيّات اللواتي تناسىٰ المؤرّخون سِيَرَهنّ فلم يكتبوا عنها كما يجب أن يكتب، بل مرّوا بها مرور الكرام.

وقد أحصت المؤلّفة في كتابها هٰذا، سيرة سبع عشرة اَمرأةً مسلمة تَوَلّين الحكم. وكان من شرعيّة الحُكْم آنذاك أن يُدعىٰ للحاكم في الجوامع في خطبة الجمعة، وأن تُسكَّ النقود باَسمه، وأن يَعترِف به خليفةُ بغداد ويمنحه لقبًا، وقد فُزْنَ ـ هٰؤلاء النساء الحاكمات ـ بهٰذه الشرعيّة، فكان يُدعىٰ لهنّ في خطبة الجمعة، وتُسَكُّ النقود بأسمائهنّ، ويعترِف بهنّ خليفة بغداد ويمنحهنّ لقبًا.

ولنستعرض الآن سِيَر أشهر هٰؤلاء الملكات بصورة مختصرة: اَثنتان منهنّ تركيّتان من المماليك: «شجرة الدُرّ»، وسيرتها معروفة أكثر من غيرها من الملكات، لأنّ المؤرّخين قد تحدّثوا عنها كثيرًا، وقد سُكّت النقود باَسمها، وكان يُدعىٰ لها بخطبة الجمعة بهٰذه الصيغة: «اَحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، نعمة الدّنيا والدّين، أمّ خليل المستعصميّة، صاحبة الملك الصالح»، والقصد من كلمة «المستعصميّة» هو اَعترافٌ منها بالولاء للخليفة العبّاسي المستعصم بالله.

ثمّ السلطانة «راضية» اَبنة السلطان «إيلتوتمش» وكان أبوها رقيقًا لسلطان غَزْنة، وقد أرسله السلطان لغزو الهند فنجح نجاحًا مرموقًا، وبسرعة هائلة نَشَر الإسلام في الهند، ممّا حدا بالسلطان أن يزوّجه من اَبنته. ولما مات سلطان غزنة «قطب الدين إيبك» أعلن «إيلتوتمش» اَستقلاله في دلهي، ودام حكمه فيها ستًّا وعشرين سنة. وكان قد أوصىٰ بولاية العهد لاَبنته راضية، وكان له ثلاثة أبناء ذكور، فاَستغرب

أفراد حاشيته اختياره هٰذا، فكان جوابه: أولادي مشغولون بالخمر والنساء، أمّا ابنتي راضية فهي الجديرة أن تحكم بعدي.

وقد حكمت أربع سنوات حكمًا مطلقًا عادلًا. وقد دعي لها في خطبة الجمعة بهٰذه الصيغة: «عُمدة النساء، ملكة الزّمان، السلطانة راضية بنت السلطان شمس الدين إيلتوتمش». وسُكّت النقود باسمها أيضًا. كانت أوّل بادرة منها بعد أن تسلّمت الحكم، هي أن رفعت الحجاب عن وجهها، وكانت ترتدي ألبسة الرجال، وتمتطي الحصان وهي مسلّحةً بقوس وجعبة، ومحاطةً بحاشيتها. وكانت معاصرةً لشجرة الدرّ.

وقد انتهت حياة هاتين الملكتين بمأساة فظيعة، فقد قتلتا اغتيالًا بعد أن وصلتا إلىٰ قمّة المجد. ومن يرغب في التّفاصيل الدقيقة فليرجع إلىٰ كتاب السيّدة «فاطمة المرنيسي».

أمّا الملكات المنغوليّات، فكان عددهنّ ستٌّ ملكاتٍ أشهرهنّ ـ أو بالأحرىٰ لأنها حكمت بغداد ثماني سنوات ـ هي الخاتون «تندو»، وكانت بارعة الجمال جدًّا، ابنة الملك «عويس» أحد أكبر ملوك المنغول الذين حكموا بغداد خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر. تزوّجت الخاتون «تندو» زواجًا سياسيًّا من الملك «الظاهر برقوق» عاهل مماليك مصر، وكان الملك الظاهر يحبّها كثيرًا. ولٰكنها لم تكن سعيدة في مصر لأنها كانت شديدة الحنين إلىٰ بغداد، فطلّقها «الملك الظاهر» وعادت إلىٰ بغداد، ثمّ تزوجت من ابن عمها «شاه ولد» ملك بغداد آنئذٍ، ولمّا

مات تبوّأت العرش، وبقيت حاكمة بغداد ثماني سنوات، يُدعىٰ لها في خطبة الجمعة من أعلىٰ منابر بغداد، وسُكّت النقود بآسمها. ولمّا توفّيت حلّ آبنها محلّها.

أمّا ملكات الجُزر فعددهنّ سبع سلطانات منهنّ في جزر «المالاديف» أربع ملكات في أندونيسيا، أشهرهنّ «السلطانة خديجة»، التي حكمت ثلاثًا وثلاثين سنة. كان يُدعىٰ لها في خطبة الجمعة بهٰذه الصيغة كما رواها آبن بطوطة: «اللهمّ آنصر أَمَتَكَ السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين».

ويحدّثنا الكتاب عن ملكتين عربيّتين حكمتا اليمن، هما: «أسماء الصليحي» وكنّتُها «أروىٰ الصليحي». أسماء الصليحي حكمت اليمن مع زوجها «علي الصليحي» خمسة عشر عامًا، وكانت تجلس إلىٰ جانب زوجها في مجلس الوزراء سافرة الوجه يُديران معًا شؤون المملكة، وكانت تُلقىٰ خطبة الجمعة بآسميهما، وكانت تلقّب بالسيّدة الحرّة، ويعني هٰذا اللقب: السيدة النبيلة الحرّة، المستقلّة، المرأة الحاكمة، التي لا تخضع لأيّ سلطة عليا. وقد ورد نصّ الخطبة الحرفي في كتاب السلطانات المنسيات بهٰذه الصيغة: «اللهمّ أدم أيّام الحرّة الكاملة كفيلة المؤمنين...».

ثمّ قتل «علي الصليحي» وهو في طريقه إلىٰ مكّة المكّرمة مع زوجه أسماء، تعرّض له في الطريق «سعيد بن نجاح» أمير ولاية زبيد، وهي الولاية الوحيدة في اليمن التي لم تخضع لحكم «علي

الصليحي وزوجه أسماء» وكان علي الصليحي قد ٱغتال أمير زبيد بالسمّ بواسطة إحدىٰ جواريه. فٱستطاع ٱبنه سعيد بن نجاح أن يثأر لأبيه بعد ترقُّبٍ طويل، فيقتل قاتل أبيه علي الصليحي ويسجن زوجه أسماء، ويضع رأس زوجها علىٰ عمود أمام شباك سجنها.

وكان علي الصليحي قد جعل ٱبنه «المكرّم» وليًّا للعهد من بعده، ومنذ تسلَّم هٰذا الحكم راح يستعدّ للأخذ بثأر أبيه، وإنقاذ أمّه من سجنها. وكان قد سار علىٰ غرار أبيه، فأشرك زوجه أروىٰ بالحكم، وهي ٱبنة عمه. فكانت تُلقىٰ خطبة الجمعة بٱسميهما، وتُسكُّ النقود أيضًا بٱسميهما. ولما تمّ ٱستعداد الجيش سار المكرّم علىٰ رأس هٰذا الجيش إلىٰ مدينة «زبيد»، فحاصرها مدّةً ثمّ دخلها منتصرًا، ففرّ القاتل سعيد بن نجاح إلىٰ الصحراء، فلم يستطع المكرّم اللحاق به، فراح يتحرّىٰ عن أمّه في سجون زبيد، إلىٰ أن عثر عليها في أحد السجون في حالة مأساوية فظيعة، فأصيب من جرّاء ذٰلك بصدمة عاطفيّة، أدَّت به فيما بعد إلىٰ الفالج، فكانت زوجه أروىٰ تدير شؤون المملكة وحدها، وتُلقىٰ خطبة الجمعة بٱسميهما، وبعد بضع سنوات مات المكرّم فأصبحت زوجه أروىٰ تحكم اليمن وحدها، وقد ٱمتدّ حكمها خمسين عامًا تُلقىٰ بٱسمها وحدها خطبة الجمعة، وتُسكُّ النقود بٱسمها وحدها.

وقد أجمع مؤرّخو اليمن، القدامىٰ منهم والمعاصرون، علىٰ أنّ عهد أروىٰ كان عهدًا مباركًا علىٰ اليمن، ممّا حدا بأحد المؤرّخين

المعاصرين ـ هو «عبد الله التاور» ـ أن يحصي المشاريع الهامّة التي نفّذتها أروىٰ خلال حكمها الذي آمتدّ خمسين عامًا، كبناء الجوامع، وشقّ الطرقات، وإقامة الجسور، وتنشيط المراكز الثقافيّة والدينيّة بمنحها العلماءَ والمعلّمين رواتبَ وافية، فكان أكثر مما نفّذه الأئمة مجتمعين خلال حكمهم الذي آمتدّ ثلاثة قرون ونصف، وآنتهىٰ عند إعلان الجمهورية في اليمن عام ١٩٦٢ ميلاديّة.

وهناك أيضًا نساء حكمن بآسم الآبن ونجحن، كأمّ «المقتدر»، حين أصبح آبنها خليفةً وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فكانت أمّه تدير شؤون الخلافة وقد نجحت في ذٰلك.

و«الخيزران» التي شاركت زوجها الخليفة العبّاسي «المهدي» في إدارة أمور الخلافة، فكان معجبًا بذكائها وحسن إدارتها، فلا يخالف لها رأيًا.

و«زينب» زوجة «يوسف بن تاشفين»، كانت تشارك زوجها الحكم مشاركةً فعّالة.

و«ستّ الملك»، أخت «الحاكم بأمر الله»، التي أصبحت وصيّةً علىٰ آبن أخيها القاصر عندما تولّىٰ الملك، وقد أدارت دفّة الحكم في القاهرة مدّة أربع سنوات إدارةً حازمة عادلة، ممّا جعل الشعب المصريّ يحبها، ويقدّرها حقّ قدرها، ويعتقد كثير من المؤرّخين أنّ «ستّ الملك» هي التي دبّرت آغتيال أخيها الحاكم «بأمر الله» عندما آستفحل جنونه.

وبعد هٰذا كلّه ثبت لنا أنّ المرأة المسلمة، عربيّة كانت أم أعجميّة، عندما أتيحت لها الفُرَص للتبوّأ مراكز قياديّة نجحت نجاحًا مرموقًا في قيادتها، كالملكة أروىٰ الصليحية، وخديجة بنت السلطان جلال الدين التي حكمت أندونيسيا ثلاثًا وثلاثين سنة، والخاتون تندو التي حكمت بغداد ثماني سنوات وغيرهنّ وغيرهنّ. ونجحت المرأة أيضًا كقائدة جيش، «كغزالة الحروريّة» التي أخافت «الحجّاج» ذٰلك الجبّار العنيد. أو داعيةً لعقيدة تعتنقها، كنساء الخوارج اللواتي كنّ لا يبالين بالموت في سبيل نشر مبادئهنّ ليقدن الناس إلىٰ ما فيه الخير والصلاح حسب ٱعتقادهنّ.

والشواهد التاريخيّة علىٰ ذٰلك كلّه أكثر من أن تحصىٰ...

يقول العلّامة «سلامة موسىٰ» في كتابه «تاريخ الثورات»:

التّاريخ علمٌ من حيث إنّه يروي الحوادث ويعلّلها في تتابعها. ولٰكنه يجب أيضًا أن يكون فنًّا من حيث ٱستنباطُ العبرة، والبعث علىٰ القدرة، حين نستمدّ قوّةً من الماضي إنما نغتصب بذٰلك قوّةً أخرىٰ في المستقبل.

مع أدب

الدكتور كاظم الداغستاني

أُلقيت هذه المحاضرة في «المركز الثّقافي العربي»
بدعوة من «جمعيّة أصدقاء دمشق»، مساء الخميس ٢١ ـ ١١ ـ ١٩٩١.

مع أدب الدكتور كاظم الداغستاني

ما أمرَّ الذكرىٰ وما أعذَبَها!
فهي بنتُ الصفـاء والنَّكَـدِ

وهي كالخمرة، كلّما عتقت
طفحتْ باللـذائذ الجُـدُدِ

رحِمَ الله الشاعر المُلهم «فوزي المعلوف»، صديق الدكتور «كاظم الداغستاني» الحميم وزميله في الدِّراسة في الكلّيّة الشرقيّة في مدينة زحلة، لو أنه رحل عن هٰذه الدنيا بعد صديقه الداغستاني لقلت قال هٰذه الأبيات في ذكرىٰ صديقه كاظم..

حقًّا كان رحيل الدكتور داغستاني عن هٰذه الدنيا مرًّا، بل شديدَ المرارة بالنسبة لأهله وأصدقائه وجميع معارفه، أمّا ذكراه فقد ظلّت حلوةً عذبة، كلّما بَعُدَ بها العهدُ طفحت باللذائذ الجُددُ.. فما من مرّة جاء ذكره في مجلسٍ ما ـ وما أكثر ما يُذكرا ـ حتّىٰ بدا الأسف علىٰ الحاضرين لغيابه الأبديّ عنهم، ولو أنه شارف التسعين

من عمره حين رحل عن هٰذه الدنيا. ثمّ راحوا يردّدون أحاديثه المتعة، ويروون نُكَتَهُ الطريفة، وتعليقاته الذّكية المحكمة، فلا يلبث أن يعمّ المجلسَ جوٌّ من المرح والبِشر.. فما عرفت إنسانًا رحل عن هٰذه الدنيا، وظلّ ماثلًا في الأذهان كأنه حيٌّ يرزق، مثل الدكتور «كاظم الداغستاني». فإذا تناول الحديثُ أدبه راحوا يُشيدون بهٰذا الأدب، ويؤكّدون أنهم لا يملّون من قراءته، ففي كلّ مرّة كانوا يكتشفون فيه شيئًا جديدًا، كما هو حال الفنّ الرفيع الذي لا يُمَلّ لأنه يتجدّد دائمًا أبدًا.

من المؤسف أنّ الدكتور داغستاني لم ينشر من أدبه إلّا كتابين فقط: «عاشها كلّها» و«حكاية البيت الشامي الكبير»، ثمّ الأُطروحة التي نال عليها شهادة الدكتوراه بعلم الاَجتماع من جامعة السوربون في باريز، وإلىٰ الآن لم تترجم إلىٰ اللغة العربيّة، وما زالت تطبع في الجامعة إلىٰ الآن لأنها تُعتبر مرجِعًا في علم الاَجتماع. وقد صنّفها بعض النّقاد الأميركيّين ضمن أحسن خمسين كتابًا صدرت عن الشرق الأوسط في النصف الأوّل من هٰذا القرن. أمّا ما نشر من أدبه في كثير من الصحف والمجلّات، فقد ضاع أكثره، ومهما يكن الأمر فالأدب لا يُقيَّم بالكمّ إنّما بالكيف...

وقد نشرت مجلّة «الثقافة»، مشكورةً، التي يصدرها الأديب الشاعر «مدحة عكّاش»، ملفًّا عن الدكتور «كاظم الداغستاني» عقب وفاته، وقد أشرف علىٰ هٰذا الملفّ أديبنا الكبير الأستاذ

«عبد المعين الملّوحي» مدَّ الله في عمره، فجمع من مكتبة الداغستاني ما اَستطاع جمعه من مقالات وأحاديث، وقصص قصيرة، وشعر منثور، كانت قد نُشرت في كثير من الصحف والمجلّات. فنشر الأستاذ الملّوحي بعضها في الملفّ، وأشار إلىٰ بعضها الآخر وإلىٰ الصّحف التي نُشرت فيها، كما كتب موضوعًا عنوانه «الدكتور العلّامة كاظم الداغستاني».

وقد شارك في هٰذا الملفّ أيضًا صديق الداغستاني الحميم المحامي الأستاذ «نجاة قصّاب حسن» بموضوع عنوانه «كاظم الداغستاني البساطة والعمق». وعلىٰ ذكر الأستاذ «نجاة قصّاب حسن»، فقد قرأت له منذ مدّة وجيزة، حديثًا نشره في الزاوية التي يكتبها في جريدة «الثورة» يقول فيه عن الدكتور كاظم: «هو في نظري أكبر كاتب دمشقيّ عرفه العصر الحديث».

لقد عبَّر الأستاذ نجاة عما لم أجرؤ أنا علىٰ الجهر به، خشيةَ أن يُطعَن في شهادتي، لأنّ الدكتور داغستاني خالي وشهادة الأهل يُطعن بها غالبًا. وكان من واجبي أن أشارك أنا أيضًا في هٰذا الملفّ فنشرت فيه موضوعًا بعنوان: «خالي الدكتور كاظم الداغستاني شخصيّة لا تُنسىٰ».

وقد تبيّن لنا، من هٰذا الملفّ، أنّ الدكتور داغستاني قد مارس أكثر أنواع الأدب، كتب المقالات الفكريّة والثقافيّة، والنقد الأدبيّ والاَجتماعيّ، والقصّة القصيرة، والرواية الطويلة، والشعر المنثور،

كما مارس الترجمة عن اللغة الفرنسيّة، وكتب السيرة الذاتيّة، فكتابه «عاشها كلّها» ما هو إلّا سيرة ذاتيّة، ولٰكنها تختلف عمّا أَلِفْناه من السِّير الذاتيّة الأخرىٰ. فهو لم يكتب سيرة حياته منذ وُلد حتّىٰ كتابة السيرة، إنّما أنتقىٰ منها مختاراتٍ قد تهمّ القارئ لأنّ لها علاقة بالبيئة الشاميّة الدمشقيّة فهي ذات قيمة وثائقيّة هامة، أو تمتع القارئ بفنّها الأدبيّ الرفيع. يصف فيها شعور شابٌ يغادر لأوّل مرّة دمشق البلد الشرقيّ المتزمّت في أواسط العشرينات من هٰذا القرن إلىٰ «باريز» مدينةِ النّور والحريّة، فيحدّثنا عن الملابسات والأحداث الطريفة التي وقعت له في لهوِه وجدّه، وعن الشخصيّات الهامّة من أجنبيّة وعربيّة تعرّف بها هناك ونشأت بينه وبينها مودّةٌ حميمة نَعِمَ بها طويلًا، وتنتهي سنوات الدّراسة، ويعود إلىٰ بلده دمشق وبه حنين ملحٌّ إلىٰ زيارة «باريز» بين حين وآخر، ولٰكن لم يُتح له أن يحقّق رغبته الملّحة هٰذه إلّا بعد خمس وعشرين سنة أيّ في أواخر كهولته، وما أطرف حديثه عن الفارق الكبير بين الزيارتين، بين نزوات الشباب، ورصانة الكهولة بأسلوب شائق جذّاب من السهل الممتنع، يستأثر بالقارئ فلا يحبّ أن ينصرف عنه إلّا مرغمًا.

* * *

وبما أنّ عنوان أُمسيتنا اليوم «مع أدب الدكتور كاظم الداغستاني»، فإنه يطيب لي أن أقرأ لكم بعض مقاطع من فصل

عنوانه «الولع الأوّل»، وهو أوّل فصل في كتابه «عاشها كلّها»، يصف فيه كيف عرف الحبّ أوّل مرّة، وكان إذّاك فتًىٰ يافعًا، لم يمرّ بتجربة الحبّ بعد، وتصادف أن زارت أسرتَهُ زوجةُ أحد أنسبائه لتمضي مع شقيقاته صديقاتها بضعة أيّام ينعمن خلالها بالجوّ الربيعيّ في حديقة الدّار الواسعة في حيّ الصالحيّة، وكانت هٰذه السيدة تُسفر عن وجهها أمامه لأن زوجها أخوه بالرضاع، وكانت تصطحب معها أختها الصغرىٰ، فما كادت هٰذه تراه حتّىٰ حاولت أن تُسدل برقعها الأسود علىٰ وجهها، لٰكنّ أختها الكبرىٰ قالت لها: إنّه من الأقارب، وأنه لا يبرح صبيًّا لا حرج من سُفورها أمامه، لا سيّما وهي صبيّة أيضًا وحديثةُ عهدٍ بالحجاب.

ووقفت معه، وراح يتحدّث إليها وتتحدّث إليه، ورأىٰ حينئذ ـ كما لم يَرَ من قبل ـ هيفاء، سمراء، كحلاء، ولا أروع، بَرَقَتْ في عينيها السوداوين أشعّةٌ قويّة أخّاذة، تنعكس علىٰ وجهٍ ناحل تبدّت فيه مسحةٌ من رصانة فاتنة.

لم يعد يذكر ما قاله لها لأوّل وهلة، فقد كان مأخوذًا مبهوتًا لا يدري أيّ شعور هٰذا الذي آستولىٰ علىٰ نفسه، وغمر كيانه، ولعلّه كان مزيجًا من خشوع ورهبة. لقد كان الحديث بينهما متقطّعًا، لا يشبه حديث الصبايا والصبيان حين يتلاقون، بل حديث السجناء الذين حُبسوا في حجرات منفردة مظلمة وقد آلتقوا

منطلقين علىٰ غير موعد، وفي وضَح النهار، تأخذهم الدّهشة، ويبهر النور أبصارهم.

قالت عائشة لأختها، التي جاءت لتزور الأسرة لبضعة أيّام:

ـ سأعود الآن إلىٰ بيتنا، وسأرجع صباح الغدّ إلىٰ الصالحيّة.

قالت ذٰلك وهي تبتسم له، وتحتويه بنظرة حنان تثير في أعماقه خلجات وخفقات ما عرفها من قبل.

وتغادر عائشة الدّار مع خادمة لها.

ويمضي هو نهاره وحيدًا، لا يكلّم أحدًا، تمرُّ به هُنيهاتٌ لا يعرف كنهها أو مداها أو مدّتها، تغمره بشعور من الغبطة، وتلفّه بغلالات رقيقة شفّافة من النعماء، هُنيهات العمر... عرف ذٰلك فيما بعد. إنهنّ ممّا يتّصل بالملأ الأعلىٰ، فيصبحن، وهنّ يندمجن في هويلائه، نعيمًا سرمديًّا لا تُحسّه وفيما ندر إلّا نفوسٌ بريئةٌ ٱستحالت إلىٰ أرواح مجرّدة. كان يشعر أنّ نظرته آنئذٍ إلىٰ جميع ما حوله، نظرةُ محبّة شاملة، فهو يحبّ كلّ ما يرىٰ: النهر، الزرع، الشجر، وجميع هٰؤلاء النسوة من سكان الدّار وضيوفها، وكلّ مخلوق رآه وسوف يراه. لقد أحسّ في أعماقه ـ كما يذكر ـ أنّ الحياة لا أجمل، ولا ألذّ، ولا أطرب علىٰ قلبه، إنّه يحبّها حبًّا جمًّا، يخيّل إليه أنّه سبقه قبل مولده ليفرش له هٰذه الدنيا بساطًا مخمليًّا سندسيًّا...

وكان موعد ولقاء مع من يحبّ...

ويستمرّ الحبّ بين العاشقين الصغيرين سنين طويلة، لا يجتمعان خلالها إلّا مصادفة، ولٰكنهما كانا يتبادلان الرسائل بواسطة إحدىٰ قريباتها، ويعبّران في هٰذه الرسائل عن حبّهما الذي يزداد رسوخًا علىٰ مرّ الأيّام. ولما اَستوىٰ الفتىٰ اليافع شابًّا يستطيع أن يتحمّل مسؤوليّة الزّواج تقدّم إلىٰ طلب يد الحبيبة من ذويها. وما كان أشدّ دهشته، وخيبته أيضًا، حين رُفض الطّلب. وكانت الأعذار المانعة واهيةً جدًّا، منها هٰذه الصلة التي قامت بين الخطيبين في الخفاء وقد شاع خبرها بين الناس! وأما السبب الحقيقي فهو أنّ الفتاة كانت يتيمةَ الأبوين، وقد ورِثت عنهما ثروة لا بأس بها.

يقول خالي:

وكثيرًا ما كانت ثروةُ الفتيات، في هٰذا البلد الذي نعيش به، وبالًا عليهنّ، حينما يعمد القوّامون عليهنّ من الرجال فيحرصون علىٰ إبقاء هٰذه الثروة في الأسرة، أو يتدبّرون الأمر فيمنعونها عن سواهم من الأصهار، لكيّ يحتفظوا بها فيورّثوها أولادهم من بعدهم!... وكثيراتٌ في البيوتات الشاميّة الكبيرة من هنّ مثيلات عائشة، حُبسن في قماقم قديمة مرصودة صنعت من فضةٍ محلّاة بالذهب، ولٰكنها كانت محكمةَ الإغلاق، لا يستطعن كسرَها أو الإفلات منها!!!..

لقد جزِعت عائشة كثيرًا، وبكت كثيرًا، من هٰذه النهاية الدراميّة التي ٱنتهىٰ إليها حبّهما العميق، فبعثت إليه تقول إنّه ليس بإمكانها أن تثور، أو تتمرّد كما يُطلب منها، وليس بمقدورها إلّا أن تذعن لمشيئة القدر، فهي حريصة علىٰ سمعة الأسرة، لا تستطيع أن تخرج علىٰ التقاليد السائدة في هٰذا البلد.

وإنّه ليستغرب الآن، ويعجب كثيرًا، مشفقًا علىٰ نفسه حتّىٰ الحزن، حينما يتذكّر كم كان وقْعُ ذٰلك الفشل عظيمًا علىٰ نفسه!

لم يكن يعلم بعد أنّ الرغبة هي كلّ شيء، فإذا تحقّقت لم يبق شيء...

* * *

كان الدكتور داغستاني من أوائل الكتّاب والمفكّرين الذين نادوا بحريّة المرأة، وإعطائها حقوقَها كاملة، وكان هٰذا ـ في أوائل العشرينات من هٰذا القرن ـ يعتبر شجاعةً لا يُقْدِم عليها إلّا الجسور من الكتّاب، لأنه ربّما تعرّض إلىٰ النقد الشديد، أو إلىٰ الإهانة والأذىٰ من بعض المتعصّبين المتزمّتين. وقد نَشَر، في أوائل الثلاثينات، كلمةً في مجلة «الثّقافة» ـ التي كان يصدرها مع الدكتور «جميل صليبا» والدكتور «كامل عيّاد» والأديب الأستاذ «خليل مردم بك»، وكانت من أرقىٰ المجلّات الثّقافيّة التي عرفتها سوريا ـ الكلمة التّالية موجّهة إلىٰ المرأة العربيّة، وعنوانها «أيّتها الضعيفة»،

ولعلّ فشله من ولعه الأوّل هو الذي أوحىٰ إليه بها، وسأقرأ لكم مقاطع منها:

أيّتها الضعيفة تشجّعي، فقد آن لهٰذا الليل أن ينجلي

ولا يروعنّكِ بأسُ هٰؤلاء الأقوياء الغاشمين الذين ما أحبّوا فيك إلّا نفوسهم.

إنّ قواهم أوهىٰ من أن تحجب النّور، وإنّ ظلمهم أضعفُ من أن يقف في وجه الحقّ طويلًا.

أيّتها الضعيفة تشجّعي، فقوّة الإيمان أعظم القوىٰ.

يكفيك أن تؤمني أنك مهضومةُ الحقّ وإنّ القوم من ذويك ظالمون.

أيّتها الضعيفة آستأسِدي، فذئابُ الحيّ جياع.

لقد أنزلوك منزلة السلع، فلم يَرْعَوْا لك ذمّةً، ولم يحفظوا لك عهدًا.

لقد كذبوا علىٰ الله، فتناسَوْا لباب الدين، وآتخذوا من قشوره حبالًا يخنقونك بها.

لقد فهموا الشرف كما أرادوا، لا كما يفهمه الحقّ والعدل.

وإنهم ما برحوا يُغضبون الله ويعصُونه، فينسبون ذٰلك إليك.

ويرتكبون الجرائم للتحكّم بك، زاعمين أنهم ما آرتكبوها إلّا للدّفاع عنك.

ويسمحون لأنفسهم مُفاخِرين بكلّ ما يعيبونه عليك،
ويرمونك به.

أيّتها الضعيفة اَستبسلي، فالحريّة لا ينالها إلّا طالبها.

والمجد لا يُحرزه إلّا الجسور المقتحم.

وتمضي فصول الكتاب منسجمة مع بعضها، يحدّثنا فيها عن دمشق في أوائل القرن العشرين، عن العادات والتقاليد السائدة آنذاك لا سيّما في حَيِّه، «حيّ الصالحية»، الذي كان يُعتبر من ضواحي دمشق، وكثيرًا ما كان يقصده الدمشقيّون للتنزُّه لأنه قائمٌ علىٰ سفح قاسيون، ومشرف علىٰ دمشق وبساتينها الخضراء آنئذٍ، تحيط بها الغوطة بأشجارها الكثيفة الوارفة.

* * *

في الكتاب أيضًا فصل طريف عنوانه «هواية الأسراب الطائرة» أي «هواية تطيير الحمام»، الهواية التي كانت شائعةً في دمشق، وبخاصّة في «حيّ الصالحية»، وكان المؤلّف من هُواتها أيضًا، عندما يصف لنا الطيور الأصيلة الخارقة تحسبه أحدَ تجّارها العارفين بصفاتها، وخصائصها، وأسمائها المتعدّدة، ثمّ يحدّثنا عن التقاليد السائدة بين «كشّاشي الحمام» ـ كما كنّا نسمّيهم ـ وكأنها قوانين لا يجوز خرقها أبدًا.

وفي هٰذا الفصل من الكتاب يروي المؤلّف قصّة قصيرة رائعة

عنوانها: «الأبلق المشؤوم»، وقعت فعلًا أثناء الحرب العالميّة الأولىٰ وكان المؤلّف من شُهود هٰذه القصّة. فراح يصوّر لنا فيها إلىٰ أيّ مدىٰ قاست بلادنا من العنت والظلم إبّان هٰذا الحكم التركيّ الجائر الذي آمتدّ أربعة قرون كاملة.

ملخّص القصّة هو:

كان أحد أبناء حيّ الصالحيّة، وآسمه «حليم ملكة»، رجلًا طيّبًا يحبّه جميع أهل الحيّ لدماثته وحسن خُلقه، وكان من هواة تطيير الحمام، وكان مجنّدًا، اَعتاد أن يصحو باكرًا يُطيِّر السِّرب ثمّ يعيده إلىٰ أوكاره، ثمّ يُسرع إلىٰ ثكْنَته، يُقيِّد آسمه ثمّ يذهب إلىٰ الوظيفة التي أناطوه بها لأنه غيرُ صالح للحرب.

وذات مرّة عاد السرب دون أن يعود معه «الطارد»، وهو الطائر الذي يقود السرب، والسرب يتألّف عادة من الطيور الذكور فقط، ليس بينهم أنثىٰ واحدة كيّ لا تثير البلبلة في السرب. وكان هٰذا الطارد طيرًا أبلق من الطيور الأصيلة الخارقة، يقدّر ثمنه بليرتين ذهبيّتين، وكان هٰذا المبلغ يُعتبر كبيرًا في ذٰلك العهد. فما كان من «حليم ملكة» إلّا أن طيَّر سربه مرّة ثانية عسىٰ أن يعود معه الأبلق الشارد. ولم يعد الأبلق أيضًا، فما كان من «حليم ملكة» إلّا أن أعاد السرب إلىٰ أوكاره، وأسرع إلىٰ ثكنته فقد تأخر عن ميعاده بضع دقائق، ولم يسبق له أن تأخر عن ميعاد وظيفته دقيقة واحدة.

ولٰكن، من سوء حظّه، جاءت هيئة التفتيش أثناء غيابه، وقيّدت آسمه بين «الفارّين»، وكان القانون الساري آنذاك هو أن تُفرز أسماء الفارّين إلىٰ عشرات، ثمّ يؤخذ بالقرعة واحدٌ من كلّ عشرة مجنّدين ويعدم فورًا عند إلقاء القبض عليه، دون أيّةِ محاكمة أو أيّ سؤال أو جواب! وتقع القرعة علىٰ «حليم ملكة» الذي وصل في تلك اللحظة، فما كان منهم إلّا أن أخذوه فورًا إلىٰ ساحة المرجة، وأعدم شنقًا، وكان إعدامه مأساةً حَزِنَ لها حيٌّ الصالحية حُزنًا أليمًا.

وبعد ثلاثة أيّام عاد الأبلق إلىٰ سربه، بعد أن كان السببَ في إعدام صاحبه. ولمّا أراد أهل «حليم ملكة» بيع السرب لم يرضَ أحدٌ أن يشتري الأبلق الخارق، لأنّ كشّاشي الحمام آعتبروه طائرًا مشؤومًا.

في الكتاب أيضًا فصل بعنوان «لهو الصبا والشباب»، لعلّه من أحلىٰ فصول الكتاب، يبدأه المؤلّف بمقدّمة يقول فيها:

لقد كانت تلك الأيّام قاتمة اللون كما يذكرها، تكاد تكون مفعمةً بالكآبة والحيرة، قطعها صاحبنا بين أهله وهو يستقبل شبابه وَجِلًا، متردّدًا، وكأنما هو يفتّش عن نفسه فلا يجدها، وإذا وجدها مرّة ألفاها مضطربة تكاد لا تعرف ما تبتغي ولا تدرك ما تريد..

ويا لأيّام المراهقة، وبوادر الشباب التي تليها، ما أقساها علىٰ

النفوس الفرحة المرحة، حينما لا تجد ما يملأ هٰذا الفراغ الذي خلّفته نزوات الحياة كما أسماها «برغسون»، في نواحٍ كثيرة من نواحي القلب والروح والعقل!

ويا للتعنّت والظلم اللذين كان يلقاهما المراهقون، وهم يستقبلون مطلع شبابهم، الذي كان من حقّه أن يلهو، وكان من حقّه أن يمرح ليستطيع بعد ذٰلك أن يجدّ ويعمل!

يا لتزمُّت أولٰئك الذين كانوا قد ودّعوا الشباب إلىٰ غير رجعة من الكهول والشيوخ، فدعاهم الحقد لأن يطلبوا من هٰذا الشباب بعدئذٍ أن يكون وقارًا خالصًا، لا هزل ولا مرح معه، وجهدًا مضنيًا لا لهو ولا راحة فيه، وتشمل قسوتهم هٰذه الصبايا والفتيان علىٰ حدّ سواء..

ولم يكن هناك، كما يذكر صاحبنا، ما يمكن أن يسمّىٰ أمكنة لهوٍ سوىٰ نوعين اثنين من الأمكنة، يُحظر علىٰ غير الرجال ارتيادها حظرًا شديدًا، أوّلها ما يسمّىٰ «خيمة كركوز»، وهو خيال الظلّ الذي كان شائعًا في كثير من بلدان الشرق الأوسط، وثانيهما ما يسمّونه «التياترو»، ويُراد به مسرح الغناء والرقص، يضاف إلىٰ ذٰلك بعضُ فرق التمثيل التي كانت تَفِدُ إلىٰ دمشق من مصر، فتقوم بتمثيل بعض المسرحيّات من حين لآخر، ثمّ لا تلبث أن تغادرها إلىٰ غيرها من البلاد العربيّة، يضاف علىٰ هٰذا أيضًا مسرح «الكباريه»، الذي كان أجنبيًّا غربيًّا بكلّ ما فيه الفنّانات، والموسيقىٰ، والرقص، والشراب، والطعام أيضًا.

ويصف لنا بعض فصول «كركوز» التي كان فيها نقدٌ لاذع للمجتمع، والحُكم أيضًا، ولٰكن من طرفٍ خفيّ، وعلىٰ ذكر «كركوز وعيواظ» كان خالي بارعًا جدًّا في تقليدهما، وكنّا نمضي سهراتٍ عائليّة طويلة وهو يقلّد لنا بعض فصولهما وكأنه «كراكوزاتي» محترف... لأنه كان بارعًا في التقليد وفي التحكُّم في صوته، وفي اَعتقادي لو قُدِّر له أن يمارس التمثيل لكان له فيه شأن كبير.

أمّا حين نقرأ وصف المسرح، و«الكباريه»، يخيّل لنا أننا نعيش تلك الأحداث كلّها كما عاشها المؤلّف لبراعة الوصف، ودقّة الملاحظة، وسلاسة الأسلوب الشائق، وحيويّته، أو كأننا نشاهد هٰذه الأحداث في مسلسل تلفزيونيّ يمثّل أمامنا.

في الكتاب أيضًا ثلاث رسائل موجّهة إليّ تشكّل في الكتاب فصلًا كاملًا، كان خالي قد أرسلها إليّ عندما كان في «معرّة النعمان» يشغل فيها وظيفة «قائم مقام»، ولمّا ألّف كتاب «عاشها كلّها» اَستردّها منّي ونشرها في الكتاب بعد أن حذف منها الأشياء الخاصّة كالسلامات والسؤال عن صحّة كلّ واحد منّا بمفرده. لهٰذه الرسائل قصّة أحبّ أن أرويها لكم الآن:

كان ذٰلك في أوائل الأربعينات من هٰذا القرن، جئت مرّة أزور خالي وقد حملت له مجلّة كنت قرأت فيها بحثًا قيّمًا عن الوحدة العربيّة، وكنّا دائمًا نتبادل الكتب والمجلّات. قدّمت إليه المجلّة، وقلت له:

ـ قرأت هنا موضوعًا عن الوحدة العربيّة أعجبني كثيرًا فأحببت أن تقرأه أنت أيضًا.

قال لي بلامبالاة، مشيرًا بيده:

ـ أنا لا أهتمّ بمثل هٰذه المواضيع السابقة لأوانها، لأنه لا جدوىٰ منها الآن.

قلت مستغربةً مندهشة:

ـ ماذا تقول؟ موضوع الوحدة العربيّة لا جدوىٰ منه؟ وهو أهمّ المواضيع التي يجب أن نفكّر بها دائمًا وأبدًا، وفي كلّ زمان ومكان، هي الحلم الذي عاش عليه أجدادنا وآباؤنا وسيتحقّق إن شاء الله في عصرنا هٰذا. إنّ فيه خلاص أمّتنا العربيّة من كلّ ما تعاني..

فقهقه ضاحكًا وقال لي:

ـ كم أنت متفائلة.. أنصحك ألّا تشغلي فكرك بمثل هٰذه الأمور التي لا فائدة منها الآن، يجب أن يعالج كلّ قطر عربيّ مشاكله الخاصّة وينال آستقلاله التامّ، ثمّ هناك عدّة وحدات يجب أن تتمّ قبل الوحدة العربيّة.

قلت نافدة الصبر:

ـ وما هي، ما شاء الله، هٰذه الوحدات؟

قال:

ـ وحدة اَقتصاديّة بين البلاد العربيّة، ووحدة ثقافيّة، واَجتماعيّة، ووحدة أهداف وإلىٰ آخره.. وبعدئذٍ نفكّر بالوحدة العربيّة وربّما جاءت هي نفسها تسعىٰ إلينا.

قلت، وأخجل الآن من جهلي الفاضح، كان ذٰلك منذ خمسين عامًا:

ـ هٰذه الوحدات كلّها يمكن أن تتمّ بعد الوحدة العربيّة!

قلت ذٰلك، وكأنّني نسيت، أو تناسيت، أنّني أتحدّث مع دكتور في علم الاَجتماع، يُرجَع إليه في مثل هٰذه الأمور.

قال:

ـ لن أدخل معك في جدال لا جدوىٰ منه علىٰ ما أرىٰ، بل أعود وأنصحك ألّا تشغلي نفسك بقراءات لا فائدة منها..

فاَحتدمتُ غيظًا وقلت دون تفكير، وكم أشعر الآن بالندم علىٰ ما بدر منّي:

ـ هٰذا النصح لا يأتينا عادة إلّا من غير العرب!

قلت ذٰلك منددّةً بخالي، لأنّه من أصل غير عربيٍّ، فهو من أبٍ داغستاني وأمٍّ عربيّة سوريّة، ففهم قصدي، فتحوّل واَمتعض وجهه، ونظر إليّ بترفُّع وإشفاق دون أن يجيبني بكلمة واحدة. قلت له ذٰلك مدفوعة بحماسة هوجاء رعناء، قد تُعمي البصر والبصيرة وتؤدّي بنا إلىٰ فكرة ثابتة تتمركز في أعماقنا لا نستطيع أن نحيد

عنها أو نقبل النقاش فيها، والفكرة الثابتة حالة مرضيّة كما يقول علماء النفس ويبدو أنني ٱبتليت بهٰذا إلىٰ حين.

وقمت وٱنصرفت إلىٰ داري، وأنا أشعر بحزن عميق لأنّ خالي، العزيز عليّ جدًّا، لا يؤمن بالوحدة العربيّة ولا يتحمّس للعروبة مثل أمّي مثلًا، أخته الكبرىٰ، التي أرضعته مع أحد أولادها، والتي كانت أكثر حماسةً لكلّ شيء عربيّ من أيّ واحد في أسرتنا، وعندما خرج «الملك فيصل» من دمشق مخلوعًا ظلّت أيّامًا تبكي وكأنها قد فقدت عزيزًا عليها.

وبعد مدّة قصيرة سافر خالي إلىٰ «معرّة النعمان» حيث وُظّف «قائم مقام» لتلك المنطقة، ومن هناك وجّه إليّ هٰذه الرسائل الثلاث، يُثبت لي فيها، بكثير من اللباقة واللطف، وبطريقة غير مباشرة، ٱنتماءه الكامل إلىٰ الأمّة العربيّة، وٱعتزازه الكبير بوطنه سوريا وحبّه العميق لبلده، ومسقط رأسه، دمشق الفيحاء.

يقول في إحدىٰ هٰذه الرسائل:

وما المعرّي، والكِندي، والفارابي، وٱبن سينا، وٱبن رشد، وغيرهم الكثيرون إلّا من أولٰئك العباقرة الذين أنبتتهم، أو أنشأتهم، وربّتهم من بعد تربتنا هٰذه المعطاء المئناف التي كانت وما برحت قدسَ الأقداس. وليس في الدنيا ـ كما أرىٰ ـ أرضٌ كسوريا، وما جاورها من بلاد، جديرةٌ بأن يؤمّها الناس، وروّاد الأوابد من جميع أنحاء الدنيا، ليزوروا عوالمها، ويتفقّدوا أطلال مُدُنها القديمة، وخرائب

عواصمها التي أنشأت أعظم ما أنتجته للناس قوّة العقل والفكر.

وترون أنه تعمَّد أن يأتي بأسماء عباقرة من أصول عربيّة خالصة كـ «المعرّي»، و«الكندي»، و«ابن رشد»، وآخرين من جذور غير عربيّة مثل خالي تمامًا ولٰكنهم عرب بالانتماء كـ «الفارابي»، و«ابن سينا»، لأنهم تثقّفوا ثقافةً عربيّة، وكتبوا باللغة العربيّة، وتديّنوا بالإسلام الذي أوحىٰ به الله إلىٰ عبده العربيّ مُحَمَّدٍ بن عبد الله صلّىٰ الله عليه وسلم، فانبثق الإسلام من الجزيرة العربيّة.

وفي رسالة أخرىٰ عن أبي العلاء، يقول:

أليست واحدةً من معجزات الشرق العربيّ أن تفيض روائع الحِكَم القائمة علىٰ الفلسفة الحقّ يطلقها، مَن كان «رهين المحبسين»، شعرًا ما استطاع مجاراته فيه شاعر من بعد؟ أوليس من مفاخرنا ـ نحن العرب ـ أن يتباهىٰ الغربيّون خلال أعصر طويلة «بدانتي» صاحب الكوميديا، ثمّ يأتي الراهب «آسين بلاسيوس»، عملاق المستشرقين، فيشهد والأدلّة تُقسم عنه، أنّ ما أتىٰ به شاعرهم ما هو إلّا ومضة من ومضات شاعرنا «المعرّي»؟

وعندما يتحدّث عن أفاميا يقول:

ومن يدري؟ لعلّ أطلالَ أفاميا، وأنقاضها، وأتربتها، ما برحت تحمل في أحشائها تحفًا كثيرة، كاللواتي أعطتها بالأمس القريب واحدة من مدننا «أوغاريت» في «رأس شمرا»، فأوضحت بذٰلك كيف أنّ السوريّين الأوائل كانوا الروّاد في بناء الكلمات، وإبداع كلّ

حرف من حروفها بأبجديّتهم التي تَحقّق أنها أقدم أبجديّةٍ اُستنار بها عقل الإنسان منذ آلاف السنين، حين قدّموها لسواهم من شعوب الأرض التي اتصلوا بها بعد أن بنوا السفن الكبيرة كما بنوا الكلمات.. وليس ببعيد ذلك اليوم، الذي سيكون لبلدنا الشأن الأوّل عند الناس، الواعين في تقديس معالم الفكر والعقل والحرص على الحجّ إلى أطلالها، وبقايا حضاراتها القديمة، التي ما شهد العالم أمثال عظمتها وروعتها.

وفي رسالة من هٰذه الرسائل الثلاث يتحدّث عن شارع «أبي رمّانة»، وعن سبب تسميته بهٰذا الاَسم، حديثًا لم يسبقه إليه أحد، حديث اَبن البلد المحبّ لبلده، الوفيّ لحيّه أحسن الوفاء، فهو يدرس ويستطلع ليعرف عن بلده وحيّه قدر اَستطاعته، فتأتي كتاباته وثائق هامّة في هٰذا المجال.

وفي آخر حديثه عن «أفاميا» يحدّثنا أيضًا عن منطقة «الغاب»، تلك القطعة من بلادنا التي كانت أشبه ما تكون بمجاهل أفريقيا قبل أن تُجفّف، ولا أدري هل أخذنا لها أفلامًا وثائقيّة قبل تجفيفها أم فاتنا ذٰلك ـ وما أكثر ما يفوتنا ـ على كلٍّ جاء حديث الدكتور داغستاني عنها وثائق حيّة عندما نقرؤها نستطيع أن نتخيّل تلك المنطقة من بلادنا كيف كانت قبل أن تُجفّف وكأننا نرى صورًا موّارةً بالحياة تتوالى أمامنا.

أظنّ أنّ الوقت لا يسمح لنا أن نتحدّث بإسهاب عن كتابه القيّم

الآخر: «حكاية البيت الشامي الكبير»، الذي ٱعتبره بعض النّقاد روايةً دراميّة طويلة. في الواقع لم يفكّر المؤلّف، حين عمد إلىٰ تأليف هٰذا الكتاب، أن يكتب رواية، فلا أذكر أنني سمعت منه كلمة رواية، إنما قصد أن يحدّثنا كيف بنىٰ الوالي «أسعد باشا العظم» هٰذا البيت الكبير، الذي جاء أشبه بالقصور منه بالبيوت، ثمّ كيف ٱغتال العثمانيّون الوالي «أسعد باشا العظم» حين علا صيته، علىٰ طريقتهم كلّما أوجسوا خيفةً من والٍ جسورٍ مقتدر، خشية أن يستقلّ بولايته وينفصل عن الامبراطورية العثمانيّة. ففوجئ الوالي بقرار نقله إلىٰ «سيواس»، وهي ولاية في «الأناضول» التركيّة، لكي يتاح لهم أن ينالوا منه هناك بعيدًا عن أشياعه وأهله وبلده. وبقي «أسعد باشا»، وهو والٍ في «سيواس»، علىٰ ثقته بالسلطان العثمانيّ الذي أعطاه، فيما مضىٰ، ما أسماه السلاطين «منحة الأمان»، وفيها يقتطعه السلطان عهدًا مقدّسًا بمثابة القسم، بأن لا يشهر أحد من رجال السلطان سلاحًا عليه بقصد القتل أو الأذية، ولذا أفتوا فيما بينهم بٱغتياله خنقًا كي لا يَحنُث السلطان بيمينه، وبما تعهّد له به. وكان لهم ما أرادوا حين تمّ خنقه في الحمّام وهو يغتسل، وٱحتجزت أمواله وممتلكاته الموقوفة في بلاد الشام حجزًا مؤقّتًا، وأخرجت كنوزه من مخابئها، في البيت الكبير، وصودرت أمواله التي بلغ من وفرتها أن عمدت الدولة العثمانيّة إلىٰ رفع قِيَم عملتها كما روىٰ ذٰلك المؤرّخون. وبعد فترة طويلة رُفع الحجز عن عقاراته الموقوفة، فجاء ورثته وسكنوا البيت الكبير...

ويضيف المؤلّف العادات والتقاليد الشاميّة السائدة في ذٰلك

العصر، في الأفراح والأتراح، والمشكلات التي تحدُث عادة بين الأخوة والضرّات وأبناء العمّ والحموات والكنّات، وقد ٱستقىٰ هٰذه المعلومات كلّها من سيّدة واعية مثقّفة من أسرة «العظم»، هي حماة المؤلّف السيّدة «يسار المؤيّد العظم»، وقد سكنت هٰذا البيت مع زوجها مدّة، ودوّنت أثناءها مشاهداتها كلّها من دفترٍ أعطته إلىٰ صهرها الأديب «كاظم الداغستاني»، لينقل منه ما طاب له إلىٰ مؤلّفه «حكاية البيت الشامي الكبير». فجاء الكتاب بخمسة عشر فصلًا، تشكّل رواية مأساوية أشبه ما تكون بتلك الروايات الحديثة، التي لا تركّز علىٰ الحدث بقدر ما تركّز علىٰ الأجواء التي تحيط به، والتفصيلات الصغيرة التي تكوّن بمجموعها الأسباب الدافعة إلىٰ حدوث الحدث.

في ٱعتقادي لا شيء يشوّه الأدب كالتلخيص، فمن شاء أن يعود إلىٰ هٰذه الكتب فلا تزال باقية منها أعداد قليلة في «مكتبة العائلة» لصاحبتها الأديبة «مهاة فرح الخوري».

وأخيرًا أحبّ أن أُنهي أمسيتنا هٰذه بقطعة صغيرة من شعر الدكتور «كاظم الداغستاني» المنثور، كان قد نشرها في أوائل الثلاثينات من هٰذا القرن، في إحدىٰ المجلّات، وقد بدت لي وكأنها قصّة رمزيّة.

في الواقع لم نعثر علىٰ شعره المنثور، يبدو أنه أتلفه قبل رحيله، لأنه لم ينشره حين كتبه وقد تغيّرت المفاهيم كثيرًا خلال سبعين عامًا.

عنوان القطعة «الجناح المكسور»:

أرأيتها وقد طارت بجناحيها آمنة عواديَ الزمن..

لقد شَدَت بين الرياض، وحامت حول الأزاهر، وتنقّلت من غصنٍ إلىٰ فنن.

لقد مضت والربيع إلىٰ ضفاف الغدير تشرب في كؤوس الزهور رحيق الشباب والهوىٰ.

ومشت يحدوها الهُيام علىٰ رمال البحار وفي سفوح الجبال ترتل نشيد الصبا

وغرّتها أماني الحياة!... فظنّت وعود الزمان حقيقةً لا تفترىٰ

وهبّت العاصفة، فإذا الجناح ينكسر، وإذا الآمال تنقضي، وإذا الهوّة سحيقة المدىٰ

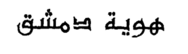
لقد أضناها المسير، وأجهدها النحيب، وفتَّ في عضُدِها الأسىٰ

يا للرجال الراحمين!.

لقد ردّدت صخور الوادي صوت الأنين، ولا من مجيب سوىٰ رَجْع الصّدىٰ!..

رحم الله خالي الدكتور «كاظم الداغستاني»، وطيّب ثراه، فقد كان نسيجَ وحدِه وشخصيّةً لا تنسىٰ.

وماذا يبقىٰ من الناس إلّا الأحاديث والذكر؟



نُشر هذا المقال، مختصرًا،
في جريدة «تشرين»، يوم ١٥ ـ ٤ ـ ١٩٧٧.

هويّة دمشق

وَعَيْتُ دمشق، في أوائل هٰذا القرن، وأنا صبيّة يافعة.. كانت تبدو لي وكأنها واحةٌ خضراء تحيط بها الأشجار من كلّ جانب، وتتخلّلها البساتين الفيح النّدايا، وتجري بها سبعة أنهرٍ دفّاقة. وكنّا نسكن في بيت قائم علىٰ سفح قاسيون، يمرّ بحديقته الواسعة «نهر يزيد» (سُمّي يزيد نسبة إلىٰ الخليفة الأموي «يزيد بن معاوية»، فهو الذي أَمَرَ بحفره في هٰذه المنطقة). وأذكر أنّ مياهه كانت صافيةً كدمع العين، قبل أن يطرأ عليها ما طرأ من التلوّث. وكان سكّان دمشق، آنذاك، لا يتجاوز عددهم الثلاثمئة ألف نسمة.

لا شكّ أنّ هناك كثيرًا من البلدان والعواصم المحاطة بغابات أكبر وأكثف من غابات دمشق، لٰكن ميزة غابات دمشق أنها كانت من الأشجار المثمرة النادرة، الفريدة بطعمها ورائحتها العطريّة. هل هناك مثيل للمشمش الحمويّ؟ أو الدُّرّاق الزّهري

أو الغَتْمي، أو الإجاص أبو ريحة، والتفّاح السكري، حتّىٰ خوخ الدبّ، والإجاص أبو زبلة، ما زلت أذكر طعمها اللذيذ إلىٰ الآن. كذٰلك الليمون البلدي، والكَبّاد، والنّارِنْج، والفراسكين وو..إلخ. هٰذه كلّها ٱنقرضت من دمشق!.. لأنّ موطنها الأصلي هو بساتين دمشق وليس الغوطة، فلم تنجح زراعتها في الغوطة، فلمّا زالت بساتين دمشق ٱنقرضت هذه الأنواع من الفاكهة النادرة، وحلّ محلّ أشجارها الوارفة الخضراء أبنيةٌ إسمنتيّة كالحة، ليس في بنائها شيء من الفنّ أو الجمال!!..

لقد أحصىٰ «أبو البقاء البدري» في كتابه «نزهة الأنام في محاسن الشام»، الذي صدر في أواخر القرن التّاسع الميلاديّ، عشرين صنفًا من المشمش، وثلاثين من العنب، وخمسة عشر من الدُّرّاق وو... إلخ.

يبدو أنه كان لأهل دمشق إلمامٌ ملحوظ بفنّ البَشْتَنَة.. يقول «البدري» في كتابه أيضًا: كنتَ ترىٰ الأشجار، في بساتين دمشق، وكأنها السطور في الكتاب، وقد تطرح الشجرة الواحدة أربعة أو خمسة أنواع من الفاكهة، وتُزهر شجرة الورد الواحدة أربعة أو خمسة ألوان من الورد، وهو ما يسمّونه ـ في صناعة الفِلَاحة ـ بالتطعيم. وذكر «البدري» في كتابه أيضًا الورد الأسود، يعني ذٰلك أنهم ٱستطاعوا أن يستولدوا الورد الأسود منذ ذٰلك العهد البعيد، وقد ٱستُولد حديثًا في أوروبا.

كان السائح الغريب الذي قطع المسافاتِ الشاسعة ليزور دمشق، أقدم مدن العالم والعاصمة، العربيّة الشهيرة في التاريخ، يُصاب ـ لأوّل وهلة ـ بخيبةٍ كبيرة... لأنّه يرىٰ عاصمةً متواضعة، لا تتناسب شهرتها مع واقعها الراهن! ولٰكن لا يلبث قليلًا حتّىٰ يكتشف مخبئاتها، فتتجلّىٰ له عراقتها، خلاصة الحضارات التي تعاقبت عليها، فيعجب بجوامعها ذات القباب الضخمة المزيّنة بالفسيفساء، ومآذنها الرشيقة، وحمّاماتها الواسعة النظيفة، وبيوتها الدمشقيّة الفريدة من نوعها ذات الطراز الخاصّ، والتي كانت تبدو من الخارج متواضعة جدًّا: باب الدار القصير لا يوحي بما ورائه أبدًا، لأن ربّ البيت كان يخشىٰ الغُزاة الذين كثيرًا ما تعاقبوا علىٰ دمشق، كـ «التتار»، و«المغول» وغيرهم، فكان يحرص أشدّ الحرص علىٰ أن يُخفي ثراءَه ما اَستطاع إلىٰ ذٰلك سبيلًا.

كان الباب القصير المتواضع يُفتح أيضًا علىٰ دهليز معتم ضيّق، في نهايته بابٌ قصير أيضًا، فإذا فُتح هٰذا الباب أمام السائح الغريب، الذي لا يعرف بيوت دمشق، كان لا بدّ له أن يقف مشدوهًا أمام هٰذا المنظر الأُسطوريّ الذي ما كان لينتظره أبدًا: باحة واسعة جدًّا مفروشة بالرُّخام الأبيض المُزَنَّر بالرّخام الأسود، في وسطها بَحْرةٌ كبيرة، تتوسّطها نافورة ثرثارة، وقد برع الرّخّامون في تزيين البحرة بأنواع الرّخام الملوّن، وقد أُحيطت باحة الدار بأحواضٍ زُرعت فيها أنواع الورود والأزهار، ومن خلفها أشجار

الليمون والنارِنْج والكبّاد والفراسكين ودوالي العنب، تزقزق فيها العصافير ويهدل الحمام، وإذا كان الوقت صباحًا أو مساءً سمعت الشحارير تُردّد مواويلها..

ولا بدّ للسائح الغريب أن يتساءل، فيما بينه وبين نفسه: هل هٰذا متنزَّهٌ خاصّ فريد من نوعه؟؟ وكيف وُجد هٰذا المتنزّه بين هٰذه الحارات الضيّقة والدهاليز المعتمة؟؟

ولا بدّ أن يُسعفه المرافق له، الذي يعرف لغته وجاء به ليعرّفه علىٰ البيت الدمشقيّ الأصيل، فتزداد دهشةُ السائح وإعجابه، فيروح يتمعّن فيما يرىٰ، فإذا علىٰ يمين الداخل يوجد الليوان ذو القوس العالي، الذي عُرِّشت عليه الياسمينة، يصعد إلىٰ الليوان بثلاث درجات، وهو كغرفة كبيرة تحوطها ثلاثة جدران، والجدار الرابع مفتوح كلّه علىٰ باحة الدار، وقد فُرشت أرض الليوان بالسجّاد العجمي، وصُفّت حول جدرانه الثلاثة الأرائك، عليها الحشايا والمساند المطرّزة، وفي هٰذا الليوان كانت تسهر الأسرة في أكثر أيّام السنة ما عدا أيّام الشتاء.

مقابل الداخل إلىٰ باحة الدار تقوم القاعة، وهي مخصّصة لاَستقبال الضيوف. يُصعَد إليها بثلاث درجات أيضًا، وتُفتح علىٰ عَتَبة واسعة مربّعة، تتوسّطها بحرة من الرّخام الأبيض المزيّن برخام ملوّن علىٰ أشكال هندسيّة. تُطِلّ علىٰ هٰذه العتبة ثلاثُ غرف مفتوحة كلّها علىٰ العتبة، لكلّ غرفة ثلاثة جدران، ويصعد إليها

بثلاث درجات، وقد كُسيت جدران وسقوف هٰذه الغرف بالخشب علىٰ أشكال هندسيّة، وأوراق أشجار وأزهار مدهونة كلّها بألوان هادئة يرتاح إليها النظر، وتشهد كلّها ببراعة الصّانع الدمشقيّ، ويده الصّنَاع، وذوقه الرفيع في ٱختيار الألوان، وصبره الطويل علىٰ إبداع المنمنمات.

مع الأسف الشديد أنّ هٰذه الروائع من تراثنا ٱقتُلع أكثرها من مكانه، وتسرَّب إلىٰ الخارج حيث بيع بأغلىٰ الأثمان، لا سيّما في زمن الفرنسيّين، لأنّ قرار منع خروجها من دمشق جاء متأخّرًا جدًّا. وما بقي منها ٱقتلع أيضًا من مكانه وٱنتقل من ملكيّة فرديّة إلىٰ ملكيّة فرديّة أيضًا، أي ٱنتقل من طبقة هابطة إلىٰ طبقة صاعدة، وهٰذا أهون الشرَّيْن لأنها بقيت في البلاد التي أُبدعت فيها. أمَا كان أولىٰ بالدّولة أن تشتريها من أصحابها، وتزيّن بها منشآتها الحديثة، من فنادق، ومسارح، ومطارات، ودوائر حكوميّة؟؟ لم نقل المدارس والمشافي، لأنّنا في أشدّ الحاجة لإنجازها في أسرع وقت.

وقد ٱقتنعنا أنّ الأفراد لا يستطيعون أن يبنوا مثل هٰذه الأبنية المستلهمة من التّراث، لأنها تستهلك كثيرًا من الوقت وتكلّف كثيرًا من المال، وهي لا تفي بمتطلّبات العصر الحديث، لأنّ قطعة الأرض الصغيرة تقام عليها الآن بناية من عدّة أدوار تستوعب أُسَرًا كثيرة قد تكون بلا مأوىٰ، بينما البيت الشاميّ القديم يحتاج إلىٰ قطعة أرض كبيرة وتسكنه أسرة واحدة.

ولمّا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإنه لا بدّ لي أن أضيف إلىٰ هٰذا المقال ـ الذي كُتب منذ عهدٍ بعيد ـ ملاحظةً جديدة وهي أنّ مطعمًا بُني حديثًا في دمشق، قد كلّف بناؤه عدّة ملايين من الليرات، وممّا يثير الاَستغراب إلىٰ حدٍّ بعيد، أنّ زخارف هٰذا المطعم صُمّمت علىٰ غرار قصر «ڤرساي» في فرنسا، الذي لا يمتُّ إلينا ولا نمتُّ إليه بصلة من قريب أو بعيد، وقد جاء مشوّهًا عن الأصل!.. هل هٰذا يدلّ علىٰ زهدٍ فاضح في تراثنا العريق؟!.. أم علىٰ رأي المثل الذي يردّده الجهلة والعوام: زامرُ الحيِّ لا يُطرب!.. ولو صُمّمت هٰذه التزيينات علىٰ غرار قاعاتنا القديمة، أما كانت عبّرت عن شخصيّتنا، وذوقنا، ونكون قد أحيينا تراثنا الذي أوشك علىٰ الضياع، وكانت بالنسبة للسيّاح الأجانب شيئًا جديدًا لم يروا نظيره في بلادهم.

إنّ الذي يبعث علىٰ الاَطمئنان بعض الشيء هو أنّ الجيل الجديد لا يخلو، الآن، ممّن يقدّرون التّراث، ويعملون جاهدين علىٰ الحفاظ عليه، ويحضّون البنّائين والفنّانين علىٰ اَستلهامه وتطويره قدر المستطاع. وعلىٰ رأس هٰؤلاء جميعًا الدكتورة «ناديا خوست»، الدمشقيّة الأصيلة، التي أكنّ لها تقديرًا وإعجابًا كبيرين جدًّا، لأنها تعمل منذ سنوات جاهدةً في هٰذا المجال، ولها من شدّة حماستها، ووفرة شبابها، وقدرتها علىٰ الدأب دون كلل أو ملل، الشيء الكثير، ممّا يجعلنا نستبشر بنجاح مسعاها المشكور منّا جميعًا. ونرجو أن يقتدي بها الكثيرون من أبناء هٰذا الجيل.

ما مررت مرّةً من أمام «مكتبة الأسد» إلّا شعرت بغصّة، لأنّ هٰذا المركز الثّقافيّ الضخم، القائم في أَوْجَه مكان من بلدنا، لم يُبْنَ من الخارج علىٰ طرازٍ عربيّ عريق يعبّر عن شخصيّتنا وتراثنا!..

عندما زرت المغرب كان أكثر ما أثار إعجابي هو تمسّك إخواننا المغاربة بالتّراث العربيّ، فأكثر أبنية الدولة مستوحاة من هٰذا التّراث. وكم أتمنّىٰ أن تتريّث دولتنا قبل أن تُقدِم علىٰ بناء ما، وتستشير ذوي الخبرة في هٰذا المجال، كي تبني شيئًا يظلّ خالدًا، ويعبّر للأجيال القادمة عن عصرنا هٰذا، وذوقنا وآنتمائنا وشخصيّتنا، حتّىٰ لو آقتبسنا من الغير، نُضيف إليه شيئًا من عندنا، أي نطوّره حسب ذوقنا. لقد مضىٰ علىٰ بناء «قصر الحير»، الذي تُزيّن واجهتُه مدخلَ متحفنا الوطنيّ، ما يقرب من ١٢٦٨ سنة ميلاديّة، وما زلنا نفخر ونفاخر به إلىٰ الآن...

ولولا الجوامع، وقد بني أكثرها علىٰ طراز عربيّ، لفُقد هٰذا الطراز من شوارعنا، ولم يبقَ له أيّ أثر، ويظلّ محصورًا في «قصر العظم»، و«متحف مدينة دمشق» (أي بيت السيّد «خالد العظم»)، و«القاعة الشاميّة» في «المتحف الوطنيّ»، وفي بعض البيوت الشاميّة القديمة؛ كـ «مكتب عنبر»، و«بيت نظام»، و«بيت المجلّد»، و«بيت السّباعي»، وغيرها من البيوت القديمة، التي نأمل أن تعمل مصلحة الآثار علىٰ صيانتها ما آستطاعت إلىٰ ذٰلك سبيلًا.

عندما كتبنا عن بيوتنا الشاميّة القديمة، وعن عاداتنا وتقاليدنا، اتّهمنا بعض النّقاد بالجمود، وقالوا: كأنّنا نتمنّىٰ للزمن أن يتوقّف.. لقد فاتهم أننا كنا نلحّ علىٰ إبراز النواحي الإنسانيّة والجماليّة من تراثنا وتقاليدنا لنُغري بها الجيل الجديد، عساه يعود إليها فينتقي منها ما يتلاءم مع ذوقه، ومع السّير الحضاريّ الحديث.

عندما زرت اليابان كان أكثر ما أثار دهشتي هو تمسّك اليابانيين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة، في طريقة طعامهم، في لباسهم في المناسبات العائليّة الرسميّة. تصادف أن شهدنا عرسًا يابانيًّا أقيم في الفندق الذي كنا نقيم فيه، لاحظت أنّ أكثر المدعوين كانوا يرتدون «الكيمونو» كلباس رسميّ، وهنالك كثيرٌ من العادات والتقاليد القديمة ما تزال سائدة عندهم إلىٰ الآن، منها أنّ الابن البِكر مجبرٌ أن يسكن مع والديه، ويجب ألّا يحول أيّ شيء ـ مهما كان هامًّا ـ دون هٰذا التقليد، وقد ٱستطاعت اليابان، علىٰ الرغم من تمسّكها بكثير من تقاليدها القديمة، أن تقطع شوطًا بعيدًا في جميع مجالات الحضارة الحديثة، ممّا أثار إعجاب العالم كلّه.

عندما بنت روسيا السوفييتيّة محطّات المترو الفخمة في موسكو ولينينغراد، كانت في حالة قصوىٰ من الضيق المادي، تعمل جاهدةً لتوفّر إمكاناتها كلّها لإنتاج السلاح، وبناء المصانع الضخمة التي تنتج الصناعات الثقيلة، وعلىٰ الرغم من هٰذا كلّه لم تبخل علىٰ تزيين

هٰذه المحطّات، بالروائع الفنّيّة التي تبدو من الكماليّات التي يمكن الآستغناء عنها، لقد بدت هٰذه المحطّات كأبهاء القصور الملكيّة والمتاحف الفنّيّة، بعد أن زُيِّنت بالمنحوتات الرائعة لأكبر الفنّانين والنُّصب التذكاريّة الفخمة التي تذكّر الشعب بمواقفه البطوليّة، واللوحات الفنّيّة، وثريّات الكريستال الثمينة، كتلك التي كانت في قصور القياصرة والنبلاء، ممّا يبهر الزائر، ويجعله يقف ذاهلًا أمام هٰذا التَّرَف البالغ، ثمّ لا يلبث أن يتساءل بكثير من النقد اللاذع: ما معنىٰ هٰذا البَذْخ كلّه، والشعب ما يزال في حاجة ماسّة إلىٰ كثير من الضروريّات؟؟!

ويأتي الجواب مُقنعًا: كانت هٰذه الفنون الرائعة كلّها في الماضي مُلكًا لطبقة خاصّة تستمتع بها في قصورها!... والشعب ممنوع من رؤيتها!.. أمّا الآن، فقد آنتقلت من الملكيّة الفرديّة إلىٰ الملكيّة العامّة. ولمّا كانت محطّات المترو أكثر الأمكنة التي يمرّ بها الناس كلّ يوم عدّة مرّات، فقد جعلناها بهٰذا الشكل الأنيق للترفيه عن الشعب، وتنمية الذوق الفنّيّ فيه.

حقًّا ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان...

ولِمَ لا نتّخذ من إسبانيا، أُولىٰ البلاد السياحيّة في أوروبّا كلّها، أُمثولةً لنا؟ إنّ الذي أتاح لإسبانيا هٰذا السبق السياحيّ علىٰ دول أوروبّا كلّها، هو ما تركه لها أجدادُنا من آثارٍ رائعة قيِّمة، وقد عَرَفت إسبانيا كيف تستلهم هٰذا التراث الفنّيّ وتستفيد منه في

وقتها الراهن، إنّ زخارف «فندق الحمراء» في غرناطة هي صورةٌ طبق الأصل لزخارف «قصر الحمراء» الذي بناه في غرناطة بنو الأحمر. لقد قلّدوا هٰذه الزخارف، بما فيها من آيات قرآنيّة وخطوط عربيّة، كما هي تمامًا، فجاءت آيةً في الجمال الفريد من نوعه في أوروبّا كلّها.

كذٰلك نرىٰ في فندق «ألفونسو الثالث عشر» باحةً كتلك الباحات، التي كنّا نسميها في بيوتنا الشاميّة القديمة «أرض الديار»، تتوسّطها بحرةٌ وضعت حولها أُصُص زرع فيها الشمشير وغيره من النباتات التزيينيّة، وحول الباحة أحواض زرع فيها الياسمين والليلك والزلف، ومن ورائها أشجار الليمون والكبّاد والنارِنْج. فيرىٰ فيها السائح شيئًا مميّزًا عمّا ألفه في فنادق أوروبّا وأمريكا فينجذب إليها أكثر من أيّ بلد سياحيّ آخر. إنّ أكثر ما يشدّ الإنسان إلىٰ وطنه هو هٰذه السمات الخاصّة التي لا يجدها في بلد آخر. ولكلّ شعب خصوصيّاته التي يحرص أشدّ الحرص علىٰ الحفاظ عليها.

إذا كنت بعيدًا عن وطنك، فكما تشتاق لأهلك وصحابك وجيرانك، قد تشتاق أيضًا إلىٰ بناءٍ قديم ذي طراز خاصّ كنت تراه منذ صغرك في رواحك ومجيئك، أو إلىٰ مئذنة كانت تتراءىٰ لك من شبّاك بيتك سامقةً رشيقة ينبعث منها عند الفجر صوت المؤذّن ناعمًا حنونًا فتنهض إلىٰ صلاتك خاشعًا مطمئنًّا. ربّما

يحرّك الحنينَ فيك شوقٌ ملحّ إلىٰ سحبة موّال إبراهيمي كان يروق لجارك أن يصدح به عندما يعود إلىٰ بيته آخر الليل، زغرودةٌ حلوة تردّدها بنت الجيران في عرس أخيها فيرقص قلبك طربًا لحنان الصوت وحلوِ المعاني، أكلة «رزّ بالفول» مع اللبن والبصل والطّرخون تحت أفياء شجرة مشمش مكلّلة بالزهر في أحد بساتين الغوطة أيّام الربيع وو....

فإذا عدتَ إلىٰ وطنك، منجذبًا بهٰذه الأشياء العزيزة عليك كلّها، لأنها في الواقع هي التي تعطيك سمات الوطن، ولأنك تشعر أنها منك، وأنك منها، فكم تكون خيبتك كبيرةً عندما تجد أنّ كلّ شيء قد تغير!!.. فلا زغاريد، ولا مواويل، ولا بناء قديم، ولا مئذنة، لأنّ التنظيم الجديد قد جرفها!!..

في ألمانيا اَضطرّوا مرّة أن يفتحوا شارعًا ضروريًّا للمنطقة، ولٰكن اَعترضت طريق الشارع كنيسةٌ أثريّة، فلم يُضحّوا بها، بل اَستطاعوا بالأساليب الحديثة أن يجرّوها مع أساساتها إلىٰ مكانٍ آخر بعيدٍ عن الشارع. لا شكّ أنّ هٰذه العمليّة قد كلّفت مبالغ طائلة، وجهودًا جبّارةً قاموا بها راضين، كي لا يضحّوا بشيء من تراثهم، وما أكثر أمثالها عندهم..

أما ثالثة الأثافي فهي أنّ صوت المؤذن الناعم الحنون أصبح يأتيك مسجّلًا بواسطة مكبّرات الصوت الصاخبة، التي كثيرًا ما «تشحّط» فتُثير الأعصاب بدلًا من أن تثير الخشوع والاَطمئنان،

في الواقع لم يعد لوجود هٰذه المكبّرات أيّ مبرر لكثرة الجوامع عندنا فيستطيع صوت المؤذن مهما كان خافتًا أن يصل إلىٰ البيوت جميعها.

أمّا صاحبنا القديم «بردىٰ»، فقد عرفتُه في عزّ عنفوانه وجبروته، أي كما كان أيّام الرومانيّين. يتدفّق صاخبًا بين أشجار الصفصاف الحانية عليه من قرية «عين الفيجة» حتّىٰ «الرَّبْوة»، وهناك يتفرّع إلىٰ ستّة أنهر هو سابعها، فلا يبالي، بل يظلّ يصفّق بالرحيق السلسل...

أما الآن فقد فَقَدَ المسكين ثلثيه، فراح يتوارىٰ خجلًا بين الصخور أو في منابت الأشجار!.. لأنّ أكبر رافد لنهر بردى هو مياه نبع عين الفيجة وهي أكبر من بردىٰ بمرّتين. ولٰكن بعد أن أصبح عدد سكان دمشق ما يقارب الخمسة ملايين، أصبحت مياه نبع الفيجة تُستهلك للشرب فقط، وفقد بردىٰ ثلثيه، فلم يعد يستطيع أن يتفرّع إلىٰ ستّة أنهر، فجفّ أكثرها، وأصبح مستودعًا للزّبالة والنفايات، وبؤرًا للجراثيم، تمرح فيها الحشرات والحيوانات القارضة والزاحفة!!..

كان لا بدّ لبردىٰ، عندما كان في عزّه القديم، من هجمةٍ جنونيّة علىٰ حبيبته دمشق في أوائل الربيع من كلّ سنة، أي عندما تبدأ الثلوج بالذوبان، فتتدفّق مياهه وتغرق «ساحة المرجة» أي «ساحة الشهداء» والأحياء التي حولها. وكنّا نسمي

هٰذه الهجمة بـ «الزُّودة». وقد رأيت مرّة ساحة المرجة مليئة بالمياه، إلىٰ حدّ تصطخب فيها الأمواج حسب اتّجاه الرياح العاتية في ذٰلك اليوم!

إنّ هٰذا الهجوم البشريّ الشرس علىٰ دمشق، من المحافظات والأرياف، شجّع تجّار البناء، دون أيّ رادع أو مخطّط، ليبنوا العمارات الإسمنتيّة الضخمة بأقلّ كلفة ممكنة وأقلّ وقت ممكن، ليحقّقوا لأنفسهم الأرباحَ الطائلة، ولهٰؤلاء الوافدين الجدد أماكنَ سكنيّةً كيفما اتّفق، ليس فيها شيء من الفنّ أو الجمال، بنوها مكان البساتين الوارفة الخضراء التي كانت تتخلّل دمشق وتحيط بها من كلّ جانب!!..

سمعت مرّة من مهندس نابه، له إلمامٌ بهندسة المدن، يقول: لو أتيح لنا أن نحافظ علىٰ بعض سمات دمشق القديمة، أي لتظلّ محاطةً بالأرياف الخضراء، تتدفّق بها الأنهر وتتخلّلها البساتين، ونقيم لكلّ حيّ متنزّهًا كما في البلاد المتحضّرة... فإنّ إمكانيّات دمشق المائيّة لا تجعلها تستوعب أكثر من مليوني نسمة فقط بينما يسكنها الآن أكثر من خمسة ملايين!...

أليس مأخذًا كبيرًا علينا نحن أبناء القرن العشرين أن تفقد دمشق، أقدم مدن العالم في عهدنا، هويّتها التي عُرفت بها عبر تاريخها الطويل مدينةً للسحر والجمال!!..

إنّا لله وإنا إليه راجعون..

قصة يوسف

ذروة الذرى في الأدب القصصي

نُشر هذا المقال، مُختصرًا،
في جريدة «الوحدة»، يوم ١٥ ـ ٤ ـ ١٩٦٢.

قصّة يوسف
ذروة الذرى في الأدب القصصي

وكيف لا تكون ذُروةَ الذُّرىٰ في الأدب القصصيّ، والقرآن الكريم يبدؤها بهٰذه الآية الكريمة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَليكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾

في الربع الأوّل من هٰذا القرن بدأنا بكتابة القصّة القصيرة بمفهومها الحديث، وكثيرًا ما قال النّقاد: إنّ هٰذا النوع من القصص دخيلٌ علىٰ أدبنا، ونحن بحاجة لأن نقتبس أصوله وأساليبه الحديثة من الغرب، ريثما يتركّز مفهومه في أدبنا، ويكتسب أصالةً تُخَوّله مجاراة غيره من فنون الأدب عندنا... حين نقول ذٰلك ما إخالُنا ندرك مدىٰ الثّروة القصصيّة الهائلة التي يمدّنا بها القرآن الكريم، ومدىٰ ما يكمن فيها من فنٍّ قصصيّ لا يمكن أن تبلىٰ جِدَّتُه علىٰ مدىٰ الدّهور، بل سيظلّ حديثًا دائمًا أبدًا، لأنّ الله سبحانه جعله هديًا للبشر منذ أُنزل القرآن الكريم إلىٰ يوم يبعثون... وقد أحببت أن أختار قصّة «يوسف»، من هٰذا القصص

القرآني الرائع، نموذجًا أحاول أن أُطبّق عليه مفاهيم القصّة الحديثة. وأرجو أن أُوفّق..

إنّ من مفاهيم القصّة الحديثة الدّخول بالموضوع مباشرةً دون أيّة مقدّمات، ثمّ التركيز علىٰ الهدف الذي من أجله وُضعت القصّة، ثمّ الوصول إلىٰ هٰذا الهدف من أقصر الطرق، ويُفترض ألّا يتدخّل القاصّ برواية الأحداث، بل يترك روايتها لأبطال القصّة عن طريق الحوارات التي تجرىٰ بينهم، هٰذا كلّه مع مراعاة عنصر التشويق إلىٰ أبعد حدّ ممكن.. وعندما تصل القصّة إلىٰ هدفها يجب أن تقف عنده، لأنها حقّقت الغاية التي وُضعت القصّة من أجلها.

من أجل هٰذا كلّه يجب أن نعزل العِظات التي يُعلّق القرآنُ الكريم بها علىٰ أحداث القصّة، ونستخلص القصّة وحدها. فإذا بنا أمام قصّة طويلة تتألّف من خمس قصص قصيرة، كلّ واحدة منها ذات هدف، معيّن فإذا انتظمت هٰذه القصص الخمس في خيطٍ واحد رأيناها روايةً طويلة لا أروع ولا أبدع.

القصّة الأولىٰ: تبدأ بحوار قصير بين يوسف وأبيه:

﴿إذ قال يوسفُ لأبيه: يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتُهم لي ساجدين﴾. قال: ﴿يا بنيّ لا تقصص رؤياك علىٰ إخوتك فيكيدوا لك كيدًا، إنّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين﴾.

إنّ هٰذا الحوار القصير، الذي جرىٰ بين يوسف وأبيه، ينقلنا مباشرةً إلىٰ صميم الموضوع. وهٰذا من أهمّ ما يتطلّبه فنّ القصّة القصيرة. نفهم أنّ ليوسف إخوةً من غير أمّه يحسدونه، وأنّ أباه ـ النبيّ «يعقوب» ـ فَهِمَ من الرؤيا التي رآها يوسف أنّ ٱبنه أَثيرٌ عند ربّه، وأنه مُعَدٌّ لأمر عظيم، فخشي عليه من حسد إخوته. وللأنبياء نظرةٌ مستقبليّة بما يوحىٰ إليهم. وكان ما توقّعه الأب.. فٱجتمع الإخوة وتداولوا فيما بينهم، وقرّ رأيهم علىٰ قتل يوسف ليخلو لهم وجه أبيهم، فٱستأذنوه ليأخذوا يوسف معهم إلىٰ حيث يرعون غنمهم ليرتع ويلعب:

﴿قال: إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة، إنّا إذًا لخاسرون!..﴾.

ويأذن لهم، بعد لأيٍ، وهو يتوجّس خيفةً علىٰ يوسف، ويقترح أكبر الإخوة ألّا يقتلوا يوسف بل يُلقوه في غَيابةِ الجبّ عسىٰ أن يلتقطه بعض السابلة. فألقوه في الجبّ وعادوا إلىٰ أبيهم يتباكون، ويقولون له: لقد حدث ما كنتَ تخافه؟ لقد ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب، وجاءوا علىٰ قميصه بدمٍ كذب، فلم يُصدّق دعواهم.

﴿قال: بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا، فصبرٌ جميل والله المستعان علىٰ ما تصفون﴾.

وظلّ يأمل أن يلتقي يومًا بيوسف.

هنا تنتهي هٰذه القصّة القصيرة، لأنها حقّقت الهدف الذي وُضعت من أجله، أي إلىٰ أي مدىٰ يستحكم الحسد بالنفس البشريّة، قد يصل بها إلىٰ حدٍّ يقتلُ فيه الأخ أخاه دون أي تورّع ليشفىٰ من حسده، ولا يشفع لهٰذا الأخ صغرُهُ، وبراءته، وجماله.

ولا يهم القارئ، ولا الكاتب، ماذا حدث بعدئذٍ ليوسف، لأنّ القصّة قد حقّقت الهدف الذي من أجله وُضعت.

القصّة الثانية: يوسف في الجبّ.

شعر يوسف بمحنةٍ كبيرة قد تؤدّي به إلىٰ عذاب طويل ربّما انتهىٰ بالموت، وقد دبَّر له هٰذه المحنَة إخوتُهُ، أقربُ الناس إليه!.. كاد اليأس أن يقتله لولا إيمانه الكبير بالله سبحانه وتعالىٰ، فراح يستنجد به.. فإذا هو يشعر بالسكينة والطمأنينة تنزلان علىٰ نفسه الهالعة.. وما هي إلّا ساعاتٌ معدودة حتّىٰ يسمع أصواتًا وجلبة فيأمل خيرًا، فإذا بعض السابلة يمرّون من قرب الجبّ، ويمكثون قليلًا للاستراحة، ويرسلون واردَهُم ـ أي الذي يورد لهم الماء ـ ليمتح من الجبّ ماءً، فيُلقي بدلوه، ويتعلّق يوسف بالدلو، فيتلقّاه الرجل الذي يمتح الماء، ويُهْرَع إلىٰ سادته:

«قال يا بشرىٰ هٰذا غلام، وأسرُّوه بضاعة، والله عليم بما يعملون».

وليَتمّ القَدَرُ لعبته، يشتريه عزيز مصر بثمنٍ بخس، دراهم معدودة. ويتوسَّم بهٰذا الصبيّ اليافع، الذي تدل هيئته علىٰ النبل وأصالة المنبت، الخيرَ والصلاح.. ويجيء به إلىٰ زوجه العاقر ويقول لها: أكرمي مثواه، عسىٰ أن ينفعنا أو نتّخذه ولدًا.

الهدف من هٰذه القصّة هو أن الإنسان رهين قدره. فالذي حدث ليوسف لا يد له فيه أبدًا، بل هو من تدبير الخالق عزَّ وجلَّ.

القصّة الثالثة: يوسف وٱمرأة العزيز.

مكث هٰذا الفتىٰ اليافع، في دار عزيز مصر، بضعَ سنوات، مكرّمًا معزّزًا إلىٰ أن ٱستوىٰ شابًّا قويًّ البنيان، رائع الجمال، جذّاب الملامح، فعشقتْه التي هو في دارها عشقًا مُبَرِّحًا، فراحت تتصدّىٰ له، وتُغريه بكلّ ما لديها من قدرة علىٰ الإغراء، وهو يعزف عنها ويتجاهلها، إلىٰ أن يئست منه، فدعته مرّة إلىٰ مخدعها وغلّقت الأبواب، وقالت: هَيْت لك.

ولقد همَّت به، وهمَّ بها، ولٰكنّ الله سبحانه عصمه من الزلل.

﴿قال: معاذ الله إنه ربّي أحسن مثواي، إنّه لا يفلح الظالمون﴾.

وركض نحو الباب، فلحقت به، وجذبته من قميصه، فتمزّق من الخلف. وإذا زوجها وأحد أقاربها عند الباب.

﴿قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلّا أن يُسجن أو عذاب أليم. قال: هي راودتْني عن نفسي.. وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان

قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقتْ وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبتْ وهو من الصادقين، فلمّا رأىٰ قميصه قُدَّ من دُبُر، قال: إنّه من كَيْدِكنّ، إنّ كيدكنّ عظيم!﴾.

وشاع بين نسوة المدينة أنّ آمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، ورحن يتناولن سيرتها باللوم والتقريع، فما كان منها ـ عندما بلغها مكرهنّ ـ إلّا أن دعتهنّ إلىٰ مجلسٍ وقدّمت لهنّ الفاكهة، وأعطت كلّ واحدة منهنّ سكّينًا:

﴿وقالت: آخرج عليهنّ. فلمّا رأينه، أكبرنه، وقطّعن أيديهن، وقلن: حاشَ لله، ما هٰذا بشرًا، إن هٰذا إلّا مَلَكٌ كريم، قالت: فذٰلكنّ الذي لمتنني فيه، وقد راودتُه عن نفسه، فآستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنَنّ وليكونًا من الصاغرين﴾.

لم يقل القرآن أبدًا إنّ يوسف كان جميلًا، بل أعطانا صورةً حسّيّة عن جمال يوسف المذهل، هي أبلغ من أيِّ كلام يُقال في الجمال. وهٰذا من إعجاز القرآن الكريم الذي حاشا أن يجارىٰ.

وراحت آمرأة العزيز تطلب من زوجها أن يُسجن يوسف ليُنقذ سمعتها أمام أهل المدينة. وما زالت به حتّىٰ أقنعته، فسجن يوسف الإنسان البريء النزيه دون ذنب جناه!..

هٰذه القصّة تثبت لنا إلىٰ أيّ مدىٰ تنجرح كرامة الأنثىٰ إذا تصدّت للذكر فعزف عنها. لا سيّما إذا كانت هٰذه الأنثىٰ في مثل

مكانة وجمال أمرأة العزيز، وكان الذي تتصدّىٰ له ما هو إلّا أحد خدمها، حينئذٍ ينقلب الحبّ الكبير إلىٰ رغبةٍ طاغية في الأنتقام والتشفّي لا حدود لها!..

وهٰذا الذي حدث ليوسف.

القصّة الرابعة: يوسف في السجن.

أُدخِل يوسف، الإنسانُ البريء، النزيه، الوفيّ، السجنَ زورًا وبهتانًا، لٰكنه كان راضيًا بالسجن علىٰ ما فيه من عذاب وحرمان. ألَمْ يقل: ﴿قال: ربِّي السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه، وإلّا تصرف عني كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين﴾.

وأحبّ السجناءُ هٰذا الوافد الجديد، المميّز عن غيره بخلقه القويم، وعلمه، وفراسته، فكان يفسّر لزملائه السجناء أحلامهم فتصدق تفسيراته فيزداد إعجابهم به.

﴿ودخل معه السجنَ فَتَيان، قال أحدهما: إني أراني أعصر خمرًا، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه، نَبِّئْنا بتأويله، إنّا نراك من المحسنين﴾.

ويجدها يوسف فرصة سانحة ليُبشّر بدين إبراهيم. فقد أصبح لديه من البراهين ما يحمل الناس مِن حوله علىٰ تصديقه:

﴿قال: لا يأتيكما طعام تُرزقانه إلّا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذٰلكما مما علّمني ربّي».

﴿يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرّقون خيرٌ، أم الله الواحد القهّار﴾.

وكان لا بدّ أن يستجيب بعض السجناء لدعوته ويعزف عنها آخرون. وفسّر لهما الرؤيا قائلًا: ﴿يا صاحبي السجن، أما أحدكما فيسقي ربّه خمرًا، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾.

ويطلب يوسف مِن الذي سيُفرَج عنه، أن يذكره لمولاه الذي هو فرعون مصر، عندما يسقيه الخمر، عساه يأمر بالإفراج عن يوسف، ولٰكنّ هٰذا ينسىٰ يوسف، وينسىٰ ما أوصاه به، فيمكث يوسف بالسجن بضع سنين أُخَر.

الهدف من هٰذه القصّة هو أنّ صاحب الضمير الحيّ، والنفس الأبيّة، والخُلُق النزيه، يفضّل السجن علىٰ ما فيه من حرمان وعذاب، علىٰ أن يخون من آئتمنه علىٰ عرضه وماله، أو يسيء إلىٰ من أحسن إليه وأكرم مثواه..

القصّة الخامسة: عندما يصبح يوسف عزيز مصر.

يرىٰ فرعون مصر حُلُمًا يشغل باله ويتوجّس منه خيفة. ويعجز المفسّرون عن تفسيره.

﴿قالوا: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾.

ويتذكّر الذي نجا من السجن يوسف، فيذكر أمره لسيده

فرعون مصر، ويحدّثه كيف كان يوسف يفسّر الأحلام للسجناء فتأتي تفسيراته صادقةً لا ريب فيها، ويأمر فرعون ساقيه أن يذهب إلىٰ السجن ويروي الحلم ليوسف.. ويفسّر يوسف الحلم، ويضع الحلول للمأساة التي ستحلّ بمصر من جرّاء الجفاف الذي سيسبّب المحل.

ويعجب فرعون بهٰذا الفتىٰ، فيأمر بالإفراج عنه، وأن يؤتىٰ به إلىٰ القصر.

لٰكن يوسف يأبىٰ أن يخرج من السجن إلّا بعد أن تثبت براءته. فيؤتىٰ بزوجة العزيز، وقد أصبحت عجوزًا، لتُؤخذ شهادتها، فتعترف بأنها افترت علىٰ يوسف، وتشهد أنه كان بريئًا وعفيفًا ونزيهًا. كذٰلك تشهد النسوةُ اللواتي قطّعن أيديهنّ عندما رأين جمال يوسف المذهل.

ويخرج يوسف من السجن مرفوع الرأس، موفور الكرامة، ويعجب به فرعون مصر أشدّ الإعجاب فيجعله عزيز مصر.. ويأتي يوسف بوالديه وإخوته إلىٰ مصر، بعد أحداثٍ رائعة يرويها القرآن الكريم بإعجاز حاشا أن يُجارىٰ.

الهدف من هٰذه القصّة هو أنّ النفوس الكبيرة لا تحمل الحقد والضغينة، بل هي مفطورة علىٰ الغفران والتسامح، فقد عفا يوسف عن إخوته وجاء بهم مع أبويه ليعيشوا في مصر مكرّمين معزّزين، علىٰ الرغم من إساءتهم الكبيرة له.

هٰذه القصص الخمس القصيرة تنتظم في خيطٍ واحد ـ كما قلت سابقًا ـ فإذا هي تلك الرواية الطويلة الرائعة.

من هٰذا النبع الثرّ ـ القرآن الكريم ـ الذي يظلّ حديثًا، دائمًا أبدًا، في كلّ عصر ومصر، إلىٰ يوم يبعثون، نستطيع أن نقتبس منه ـ قدر طاقتنا البشريّة ـ ما شئنا من فنّ القصّة، قصيرة كانت أم طويلة، ونِعْم المرجع الأسمىٰ..

لمحة خاطفة عن

الأديب الدكتور إبراهيم الكيلاني

أُلقيت هذه الكلمة في «مكتبة الأسد» مساء ٢٢ آذار ١٩٩٤،
بمناسبة حفل التّكريم الذي أقامته مجلّة «الثقافة»
للأديب الكبير الدكتور «إبراهيم الكيلاني»
بدعوة من صاحب المجلّة الأديب الأستاذ «مدحة عكّاش»

لمحة خاطفة عن
الأديب الدكتور إبراهيم الكيلاني

في أواسط الأربعينات من هٰذا القرن عرفتُ الدكتور إبراهيم الكيلاني، أوّلَ ما عرفتُه، محاضِرًا فذًّا من فرسان المنابر، يأسر سامعيه بجاذبيّة إلقائه، وأهميّة موضوعاته وطرافتها، فلا ينصرفون عنه طرفة عين، من أوّل كلمة في المحاضرة إلىٰ آخر جملة فيها. ومنذ ذٰلك الحين لم أُفوّت عليَّ محاضرة واحدة من محاضراته.. ثمّ مالبثت أن توثّقت بين أسرتينا عرىٰ صداقة حميمة، فكنّا نجتمع في سهرات دوريّة مع بعض الأدباء والأصدقاء. حينئذٍ عرفته معرفةً وافية، فإذا هو الدّمث الخلق، الرفيع التهذيب، اللطيف المعشر، اللبق التصرّف،... ويعني هٰذا كلّه أنّه يتميّز بصفات الدمشقيّ الأصيل الذي يلقّبونه بحلو الشمائل، ينعمُ جلساؤه بطلاوة حديثه الذي لا يخلو من فكاهةٍ حلوة، أو نكتة محكمة، أو ملاحظة ذكيّة... ويشهد خلصاؤه والمقرّبون منه أنّ في طبعه عفّةً

وكبرياء، ما عُرف عنه أنه سعىٰ يومًا إلىٰ حاكم أو مسؤول، ليفوز بمنصب رفيع هو أهل له، أو ربح ماديّ... أحبّ الأدب عن هواية ملحّة، وقد أتاحت له المطالعة، والتحقيق في التّراث، والتأليف، والترجمة، معاشرة عمالقة الأدب والفكر والفنّ إن في الماضي البعيد، أو الحاضر الراهن، فوجد في هٰذه العشرة سعادةً ومتعة تتجدّدان دائمًا أبدًا، فاكتفىٰ بهما عمّا في الحياة من مُتَع ومتع.... أمّا إذا قُدِّر لك أن ترىٰ الدكتور كيلاني في موقف شَعَرَ فيه أنّ كرامته قد مُسَّت ولو قليلًا، أو من طرفٍ خفيٍّ، فإنّك لا تدري كيف تنقلب الدّماثة، والنعومة، واللطافة، في لحظة، إلىٰ عُنف يجعلك تتساءل: أحقًّا هٰذا هو الدكتور كيلاني الذي أعرفه؟؟..

هٰذا ما عرفته عن شخصيّة الدكتور كيلاني، أمّا الحديث عن أدبه فهو سهل بقدر ما هو صعب. لأنّ الدكتور كيلاني دعامة سامقة في أدبنا العربيّ المعاصر، قد أغنىٰ المكتبة العربيّة بخمسة وأربعين كتابًا، بين تأليف، وتحقيق، وترجمة... فهل من السهل أن نتحدّث عن هٰذا كلّه بدقائق معدودات؟؟

إنّ هٰذا يجعلنا نتحدّث جملةً لا تفصيلًا.

برع الدكتور كيلاني بكتابة السيرة، فكتب سيرة بعض معاصريه من الأدباء الذين عرفهم شخصيًّا، أو من خلال كتاباتهم، فأعطىٰ كلّ ذي حقّ حقّه بدقّة وأمانة. كان أوّل كتاب أَلَّفَهُ في أدب السيرة كتاب «عبقريّات شاميّة»، ويبدو من العنوان أنّ

الدكتور أحبّ أن يفخر بهؤلاء العباقرة الذين أنجبتهم شامنا، تربتنا المعطاءة، فكان لهم تأثيرٌ كبير في الإدارة والسياسة إبّان الحكم العثمانيّ، وهم: «أسعد باشا العظم»، و«عزّة باشا العابد»، و«رضا باشا الركابي»، فخلّد هٰؤلاء العباقرة في كتابه الممتع هٰذا، «عبقريّات شاميّة»، الذي أعتبره حافزًا علىٰ دفع طموحات الأجيال الصاعدة عندما يقرأون هٰذا الكتاب.

ثمّ عمل الدكتور في تحقيق التّراث، وتخصّص بنتاج «أبي حيّان التوحيدي»، ذٰلك الأديب الكبير الذي أُهمل إبّان حياته، فأحبّ الدكتور إبراهيم أن يُنصفه ولو بعد حين طويل من وفاته، تقديرًا له، وإعجابًا به.. وإنّ كتاب «البصائر والذخائر» الذي يبلغ وحده سبعة مجلّدات، يحتاج تحقيقه إلىٰ لجنة كاملة. وقد بلغ ما حقّقه من كتب «أبي حيّان» أحد عشر مجلّدًا، وكلّنا نعرف كم يحتاج تحقيق التّراث إلىٰ جهد، ودقّة، وصبر وأناة، ومعرفة وافية باللغة... وبعد هٰذه العشرة الطويلة بين «أبي حيّان» والدكتور كيلاني، ألّف الدكتور كيلاني كتابًا عن هٰذا الأديب الكبير، كتب فيه سيرة «أبي حيان»، وحلّلَ شخصيّته، وجمع ما قال فيه كبار الأدباء ومؤرّخو الأدب من شرقيّين وغربيّين، ثمّ اختار نماذج من كتاباته في شتّىٰ المجالات.

يعني استطاع الدكتور كيلاني، بقدرة فائقة علىٰ الإيجاز، أن يكثّف هٰذا العملاق في كُتيّب صغير يُتيح لقارئه أن يُلمّ إلمامةً وافية بهٰذا الأديب الكبير «أبي حيّان التوحيدي».

وقد مارس الدكتور أيضًا التّرجمة عن اللغة الفرنسيّة وبرع فيها. ومن يقرأ ترجماته يشعر وكأنّها أُلّفت باللغة العربيّة، وبروح عربيّة.

من ترجماته «تاريخ الأدب العربيّ» للمستعرب «بلاشير»، وهو ثلاثة مجلّدات، كما ترجم أيضًا كتابًا عن شاعرنا الكبير «المتنبّي»، ثمّ ترجم كتابًا آخر عن «الجاحظ» للمستعرب «شارل بلات»، ثمّ كتاب «الغَزَل عند العرب» للمستعرب «فادي»، ثمّ كتاب «أوج التحرّي عن أبي العلاء المعرّي» للأديب «يوسف البديعي» وغيرها... وكان الدكتور الكيلاني أوّل من عرّفنا بالأدباء الجزائريّين الذين يكتبون بالفرنسيّة.

أراد الدكتور من وراء هٰذا كلّه أن يعرّف أبناء وطنه العربيّ الكبير، ممّن لا يعرفون لغةً أجنبيّة، بآراء بعض الأدباء المستعربين بأدبنا العربيّ وإعجابهم به، وقد رفعوا بعض فرسانه إلىٰ مصافّ الأدباء العالميّين.

في ٱعتقادي أنّ هٰذا النوع من الكتب لا يقتنيها إلّا أرباب الٱختصاص، أو عشّاق الأدب، وهم مع الأسف قلّة. ولو كان الدكتور ينشد الربح الماديّ لترجم بعض الروايات الشهيرة، وما أكثرها، وما أكثر الإقبال عليها من جميع فئات القراء، ولٰكن الدكتور كما عرفناه، حفظه الله ورعاه، يسعىٰ دائمًا لأن يُفيد لا أن يَستفيد..

وقد برع الدكتور أيضًا بفنّ المقالة، وقد جمع بعض مقالاته في كتاب بعنوان «أوراق»، في هٰذا الكتاب نكتشف نواحيَ من شخصيّة الدكتور «إبراهيم الكيلاني» فاتنا الحديث عنها..

إنّه الزّوج المثالي، والأب العطوف، الرؤوف، الذي يذوب حنانًا أمام فلذات كبده.

يقول لصغرىٰ بناته، «ريمة»، في مقال بعنوان «طفلتي»: أنت فلذةٌ من كبدي وأخواتك بقيّتها، وقطعةٌ من قلبي وأخواتك بقيّته، وجزء من وجداني وأخواتك بقيّة أجزائه.

وللدكتور كيلاني خمس بنات، مدلّلات حفظهنّ الله له ورعاهنّ.

يقول عن كلّ واحدة منهنّ: إنّها سراج منير يضيء لي طريقي في ديجور الحياة..

إنهنّ وأمهنّ ملهمات الدكتور كيلاني فيما يكتب، ونعم الملهمات..

وفي الكتاب أيضًا مقالة قيّمة جدًّا بعنوان «رسالة إلىٰ كاتب ناشئ»، أتمنّىٰ أن يقرأ هٰذه الرسالة الأدباء الناشئون جميعهم، ليستفيدوا من خبرة أديبٍ كبير ذوّاقة خلال ستّين عامًا من ممارسة الأدب.

إني لأعجب أشدّ العجب لماذا لم يمارس الدكتور كيلاني كتابة

الرواية، والمسرحيّة، ونظم الشعر؟؟ إنّ لديه مقوّماتِ هٰذه الفنون الأدبيّة جميعها.. فهو لا ينقصه الخيال المبدع، ولا القدرة علىٰ التغلغل في حنايا النفس البشريّة حتّىٰ أعماقها، ولا الربط بين الأحداث، وإدارة الحوارات الطبيعيّة بين شخوص الرواية، ولا الملاحظة الدقيقة لما يجري حوله من أحداث تصلح لأن تكون نواةً لرواية أو مسرحيّة، كما لا تنقصه رهافة الحسّ، وشطحات الخيال لنظم الشعر، وهو الذي يعجب بالأدباء الغربيّين لأنهم يمارسون هٰذه الفنون الأدبيّة كلّها. وزيادة علىٰ ذٰلك كلّه يكتب المقالات ليُبصِّر كتّاب الرواية بأصول كتابتها، وفنّ تناولها، ويضع لهم الفوارق بين كتابة المسرحيّة، وكتابة الرواية... ولٰكن يبدو أنّ من ينشد الدقّة والكمال فيما يكتب، يحتاج إلىٰ وقت طويل، وتفرّغ للكتابة. والدكتور إبراهيم لم يكن متفرغًا لكتابة الأدب!! كانت الوظيفة تستهلك أكثر وقته، وهٰذا من سوء حظّنا نحن قرّاءه وعشّاق أدبه!!..

أمّا أسلوب الدكتور كيلاني فهو صورة عنه. أنيق، جذاب، لا تكلُّف فيه، قد جمع رونق الحداثة، إلىٰ متانة العراقة، يزينه رُواء الصدق، وجمال السبك، وقلمه شهم مئناف، لم يمتهن شرف الكلمة ولا قداسة الحرف. فلم يعرف عنه أنه خطّ كلمة واحدة توحي بالتزلّف، أو المداجاة.

والدكتور كيلاني يحترم قرّاءه، فلا يحاول أن يتعالىٰ عليهم

ليبهرهم بغرائب اللغة، أو غموض الفكرة وتعقيدها، كما يعتقد بعض الأدباء الجدد، إنّ في هٰذا دلالةً علىٰ العمق. ولو شاء الدكتور الجري في هٰذا المضمار لكان له قصب السبق. ولٰكنه كغيره من الأدباء الكبار يعتقد أنّ الفكرة المعقّدة الغامضة تحتاج إلىٰ تبسيط في الأسلوب لتُفْهم من جميع فئات القراء.

أطال الله عمر الدكتور «إبراهيم الكيلاني»، ومتّعه بالصّحة والعافية، ليُمْتعنا بعطاءاته الثرّة، إنّه السّميع المُجيب.

تحية إلى مواطن قديم

نُشر هذا المقال، مُختصرًا،
في جريدة «تشرين»، يوم ١٢ ـ ٤ ـ ١٩٧٨.

تحيّة إلى مواطن قديم!

المواطن العربيّ القديم هو «الإمبراطور فيليب العربيّ»، إمبراطور روما، بعثتُ إليه تحيّة إعجاب وإكبار من الصميم، وأنا أجوس الدارة التي بناها في بلده «شهبا» مسقط رأسه.

هٰذا المواطن العربيّ القديم الذي ساقته ظروفه، أو بالأحرىٰ هو الذي ساقها، ليتبوّأ عام ٢٤٤ ميلاديّة عرش أكبر إمبراطورية في عهده: الإمبراطورية الرومانيّة، مدّة خمس سنوات ونيِّف. كان الوفاء، والإخلاص، وحبّ الوطن، من سمات هٰذا الإنسان العربيّ الأصيل.. لم يُنسه بهرجُ الحكم، ومشكلاته، ومؤامراته، آنذاك، والعاصمةُ روما، وعظمتها وإغراءاتها، مدينتَهُ الصغيرة «شهبا» ذات الأحجار البركانيّة السوداء، القابعة علىٰ الجبل الأشمّ في «اللجاه»، في أقصىٰ حدود إمبراطوريته المترامية الأطراف.

حقًّا إنّ حبّ الوطن لقتّال!..

لقد عَمَّر «فيليب» مدينةَ «شهبا»، وأحاطها بأسوارٍ منيعة،

ذات بوابات ضخمة أنيقة، وزيّنها أحسن زينة، وجرَّ إليها المياه علىٰ قناطر لتوزّع علىٰ البلدة كلّها وما زالت آثارها باقيةً إلىٰ الآن. وبنىٰ فيها أيضًا الحمّامات علىٰ نسق الحمامات الرومانيّة، ومدفنًا أنيقًا ليُدفن في تراب وطنه هو وأسرته. ولٰكن مع الأسف الشديد لم تُحقّق له الأقدار هٰذه الأمنية، فٱستشهد في الحرب هو وٱبنه!!!.. وقد أقام في «شهبا» مسرحًا، كما بنىٰ فيها دارة أنيقة ليسكن فيها عندما يأتي من عاصمته «روما» ليزور بلده الأمّ «شهبا»، وقد فُرشت أرض هٰذه الدارة بفسيفساء نادرة ملوّنة تمثّل أساطير يونانيّة رائعة. يقول خبراء الآثار إنّها من أروع، وأدقّ، وآنق فسيفساء في العالم، وقد وُفّقت مديريّة الآثار أحسن توفيق حين جعلت هٰذه الدارة متحفًا لمدينة «شهبا»...

تملّكتني الدّهشة، مع كثير من الٱعتزاز، وأنا أمام هٰذا الفنّ الرفيع القديم، الذي أبدعته أيادٍ سوريّةٌ ماهرة من بلادي. لا بدّ لك، وأنت تشاهد هٰذا كلّه من بعيد، أن تعجب من تناسق الألوان وتدرُّج الظّلال، وأن تتساءل وكأنّك غير مصدّق: هل صحيح أنّ هٰذا كلّه من الحجر الأصمّ بألوانه الطبيعيّة؟؟.. أم رسمتْه ريشةٌ مِطواعة لفنّانٍ مبدع، خَبِرَ الألوان، وٱستخلص من مزجها ما يلائم هٰذه اللوحات ويحاكي الطبيعة أو يفوقها جمالًا؟ وعندما تصل إليها تمتدّ يدك لتلمس اللوحة خلسة ـ لأنّ اللمس ممنوع ـ لتتأكّد من ماهيّتها، كما لَمَسَتْ تلك الحسناء

عقدها اللؤلؤي لتطمئنّ عليه عندما رأت الحصىٰ تتلألأ في ماء الغدير الصافية كحبّات عقدها تمامًا..

يحدّثنا التاريخ عن هٰذا الإمبراطور العظيم* أنه ولد عام ٢٠٠ ميلاديّة، في مدينة «شهبا» في «اللجاه»، في بيئة عربيّة متميّزة. كان أبوه أحد شيوخ القبائل العربيّة المقيمة في «اللجاه»، والخاضعة للنفوذ الرومانيّ آنذاك، وكثيرًا ما كان يتلقّب عرب تلك المنطقة بألقاب رومانيّة، وقد تلقّب والد فيليب بٱسم «جوليوس مارينوس»، وعُرف فيليب بٱسم «ماركوس جوليوس فيليبوس».

ولما شبَّ هٰذا الفتىٰ العربيّ عن الطّوق، في هٰذه البيئة المعطاء، ظهرت عليه بوادر النجابة والذكاء، وكان من أبرز صفاته الإقدام، والشجاعة، وحُسن التصرّف، وإلىٰ جانب هٰذا كلّه حباه الله سبحانه وتعالىٰ شكلًا مهيبًا، وبنية سليمة، وقوّة جسديّة مؤهلة لممارسة الحروب والتغلّب علىٰ الصعاب في أيّ مجال بصبر وطول أناة. ومن كان متحليًّا بمثل هٰذه الصفات لا بدّ له أن يكون طموحًا. فكان «فيليب» طموحًا إلىٰ حدّ بعيد. وبعد تفكير طويل، وجد أن الٱنتماء إلىٰ الجيش الرومانيّ هو أقصر الطّرق لتحقيق طموحاته الكبيرة..

* أكثر هٰذه المعلومات مستقاةٌ من كتاب الإمبراطور «فيليب العربيّ»، تأليف عالم الآثار الأستاذ «بشير زهدي»، الأمين الرئيسي للمتحف الوطنيّ بدمشق وأستاذ محاضر بكليّة الفنون الجميلة بجامعة دمشق.

ويبدو أنه ما كان ليجهر بها إلىٰ أحد ولو كان من أخلص خلصائه، بل يدعها مدفونة في صدره حتّىٰ يحين أوان الجهر بها.

ولم يلبث في الجيش إلّا قليلًا حتّىٰ يكتشف رؤساؤه مواهبه، فما أسرع أن عيّنوه في الحرس الإمبراطوري. وبعد مدّة ليست بالطويلة مات رئيس الحرس فلم يجد الإمبراطور «جورديان الثالث» من هو أليق بهٰذا المنصب الحسّاس من «فيليب العربيّ»، فعيّنه رئيسًا للحرس الإمبراطوري.

كان هٰذا في زمن كانت فيه الإمبراطوريّة الرومانيّة في حالة ضعف شديد، وكانت السلطة الفعليّة للجيش، المكوّن من عناصر مختلفة من شتّىٰ البلاد التي تحكمها الإمبراطوريّة الرومانيّة. وكان للجنود العرب العدد الأوفر.

في شهر شباط من عام ٢٤٤ ميلاديّة، ثار الجيش علىٰ الإمبراطور الشّاب «جورديان الثالث»، وقضىٰ الجنود المتمرّدون علىٰ حكمه وحياته، لأسباب كثيرة أهمّها قلّة المؤن والإمدادات اللازمة للجيش.. ونادوا برئيس الحرس الإمبراطوري «فيليب العربيّ» إمبراطورًا علىٰ عرش روما. ربّما كان لكثرة عدد العرب في الجيش الرومانيّ يدٌ في هٰذا الآختيار.

كانت أوّل بادرة من الإمبراطور الجديد هي أن أعاد إلىٰ مجلس الشيوخ نفوذه، الذي كان قد فقده قبل حكم «فيليب

العربيّ» بزمن ليس بالقليل. فعل فيليب هٰذا لاَعتقاده أنّ وجود مجلس الشيوخ إلىٰ جانبه يُعزِّز شرعيّة حكمه. ثمّ ألغىٰ السخرة، وقضىٰ علىٰ العبوديّة، وخفّف من أعباء المصادرات غير القانونيّة، وأصدر عفوًا عن المعتقلين السّياسيّين، وأعاد المنفيّين.. من أجل هٰذا كلّه كسب الإمبراطور «فيليب العربيّ» ثقة الشعب ومحبّته وتأييده.

كان «فيليب العربيّ» قد تزوّج عام ٢٣٧ ميلاديّة من فتاة رومانيّة هي «مارثيا أوتاسيلا سيفيرا»، ذات جمال وصفات حميدة نبيلة، وقفت إلىٰ جانب زوجها في أحرج الأوقات تمدّه بالثّقة بالنفس وبالشجاعة والصبر، وقد أنجبت منه صبيًّا عُرف بآسم «فيليب الثّاني»، ولمّا آعتلىٰ زوجها «فيليب العربيّ» عرش روما سكّت دور السكّ ميداليات، ونقودًا تزيّنها صورتها النصفيّة الجميلة.

في عام ٢٤٩ ميلاديّة تمرّد الجنود علىٰ الإمبراطور «فيليب العربيّ»، فلم يجد مناصًا من الذهاب بنفسه لتأديبهم. وقد آصطحب معه آبنه «فيليب الثّاني» ليستعين به، ويمرّنه علىٰ الجرأة والقتال. فكان من جرّاء ذٰلك أن قتل آبنه أمام عينيه!!.. فقال لجنوده قولة حقّ وشهامة بعد أن أخرس في نفسه لوعة الحزن والثكل: ما قيمة الفرد في سبيل المجموع؟!!.

وظلّ يقاتل حتّىٰ آستشهد!!..

وهٰكذا اَنتهىٰ حكم الإمبراطور «فيليب العربيّ» عام ٢٤٩، بعد أن سجّل له التاريخ أثناء حكمه مواقف تشهد له بالحكمة، والجرأة، والشرف، والوفاء، والإصلاح، والإنسانيّة.. والعدل، والشّهامة.

وقد ورد في كتاب «تاريخ الحضارة» لمؤلّفه «ديورانت»، في الجزء المخصّص للإمبراطوريّة الرومانيّة، هٰذه المقولة عن «فيليب العربيّ»:

كان «فيليب العربيّ» هٰذا رجلًا مثقّفًا، مخلصًا لروما إخلاصًا خليقًا بالشرف الذي ناله في القَصص القديم.. وقد وضع فيليب هٰذا في أثناء فترات السلم التي تخلّلت حرب «القوط» برنامجًا واسعًا ليعيد إلىٰ روما دينها، وأخلاقها، وعاداتها الصّالحة، وأصدر أوامره بالقضاء علىٰ المسيحيّة..

ثمّ عاد إلىٰ نهر «الدانوب» واَنقضّ علىٰ أعدائه «القوط»، وشهد بعينيه مقتل اَبنه إلىٰ جانبه، وأعلن في جيشه الهيّاب المتردد: إنّ خسارة فرد من الأفراد لا قيمة له البتّة!..

واَستمر في مهاجمة جيش العدوّ حتّىٰ قتل في هزيمة من أقسىٰ الهزائم التي أصابت الرومان في تاريخهم كلّه.

لا شكّ أنّ الإمبراطور «فيليب العربيّ» يحتلّ مكانة مرموقة في التّاريخ العالميّ، وليس أدلّ علىٰ ذٰلك من تهافت المتاحف علىٰ اَقتناء تماثيله. فقد أحصىٰ الأستاذ «بشير زهدي» تسعة

وثلاثين تمثالًا لرأس «فيليب العربيّ» موزّعةً علىٰ عدّة متاحف في أوروبّا. وقد يكون هناك تماثيل أخرىٰ في متاحف لم يتح للأستاذ بشير زيارتها.. ولعلّ أجمل تلك التماثيل كلّها التمثال الذي اكتَشَف أجزاءه في حمّامات «شهبا» الأستاذ «غالب عامر»، ولٰكن مع الأسف الشديد إنّ التمثال محطّم وبعض أجزائه مفقودة فلا يمكن ترميمه، ولٰكن الرأس سليم، وهو من الرخام الأبيض وقد أبدعه علىٰ ما يبدو فنّان مُلهم، وما أدرانا قد يكون سوريًّا وعربيًّا يعمل بحبّ وتفانٍ ليخلّد شخصيّة مواطنه الإمبراطور «فيليب العربيّ» الشخصيّة القويّة الجذّابة المهيبة كما يبدو في التمثال.

كم أتمنّىٰ لو أنّ وزارة التربيّة تضيف إلىٰ برامجها مادة رسميّة هي: «التعرّف علىٰ الوطن»، فتقيم رحلات للطلّاب والطّالبات منذ المرحلة الإعداديّة حتّىٰ آخر المرحلة الثانويّة. فلا ينال الطّالب أو الطّالبة «شهادة البكالوريا»، حتّىٰ يعرف وطنه كلّه، سهوله وجباله، ومنابع مياهه، بحره وصحراءه، ومناجم ثرواته. كذٰلك يتعرّف علىٰ ناسه، فلا تخفىٰ عليه عاداتهم وتقاليدهم، ولهجاتهم، وألبستهم، وفنونهم، وموسيقاهم، ورقصهم. كما يتعرّف علىٰ أوابد وطنه، وعلىٰ الحضارات التي مرّت به وتركت بصماتها عليه إلىٰ الأبد.

وقد تكون الفائدة أعمّ لو يُطلب من هٰؤلاء الطلّاب

والطّالبات وصف هٰذه الرحلات في درس الإنشاء، ووصف انطباعاتهم عنها، وما تركت من آثار في نفوسهم. فلا بدّ حينئذٍ أن يرسخ حبّ الوطن في القلوب الفتيّة وينمو معها حتّىٰ يصبح عشقًا راسخًا في تلك القلوب كما رسخت في الراحتين الأصابع..

كلمة رثاء

في تأبين الصديقة الأديبة
حياة يافي الوتار

أُلقيت هٰذه الكلمة
في «جمعيّة الإسعاف العام»، مساء ٣ ـ ٤ ـ ١٩٩٤.

كلمة رثاء

في تأبين الصديقة الأديبة «حياة يافي الوتار»

وهٰكذا، في ومضة خاطفة من ومضات الزمن الغدَّار، تغتال المنون حياة!!!.. أكاد لا أُصدّق، أو بالأحرىٰ لا أريد أن أصدّق، أنّ حلوة الشمائل، ذات الطلعة المهيبة الوقور، أمَّ الشخصيّة الجذّابة، والضحكة المشرقة، قد رحلت عن دنيانا رحلتها الأبديّة!!

رحلت وهي تبدو لنا في تمام الصحّة والعافية.. هوت كما يهوي الشهاب، متألّقًا، إلىٰ مصيره السرمديّ!!

أيّتها الصديقة الغالية، لكم أكرمك الله سبحانه وتعالىٰ فنوّلك ما ترغبين فيه وتتوقين إليه..

طالما سمعتك تقولين: كم أتمنّىٰ أن أموت فجأة، لأنّه يصعب عليّ أن أعيش أسيرة دوائي، وفراشي، ونصائح طبيبي!.. أنا

لا أخشى الموت أبدًا، ولٰكني أخشىٰ المرض والعجز. فالمريض ثقيلٌ حتّىٰ علىٰ أقرب النّاس إليه!..

وقد هيَّأتْ لك الأقدار، قبل رحيلك، مناسبةً ممتعة، رحلةً تمتدّ يومين كاملين تزورين فيها أجمل بقاع بلادك الغالية عليك، وتودّعين صديقاتك من حيث لا تدرين، ولا يدرين أنه الوداع الأخير!!..

اَنتهت الرحلة، وعدنا إلىٰ دمشق، وأوصلنا «حياة» إلىٰ بيتها، ودخلته أمامنا وهي في تمام الصحّة والعافية، وكانت تسكن البيت وحدها، ويبدو أنها فتحت حقائبها ووضعت محتوياتها في أماكنها.. وفجأة جاءت اللحظة الموعودة، فهوت حياة علىٰ الأرض، وأسلمت الروح آمنةً مطمئنّة، فلا أروع ولا أبدع من هٰذه النهاية السعيدة..

إن أنس لا أنس جلسةً لنا في هٰذه الرحلة، وفي مقهىً متواضع قائم فوق هضبة تشرف علىٰ شواطئ المتوسّط، في قرية صغيرة تسمّىٰ «أمّ الطيور»، كانت حياة تبدو لي، وهي تحتسي القهوة وتدخّن لفافة أنها في منتهىٰ السعادة والغبطة. كانت ترسل نظرتها إلىٰ المدىٰ البعيد في البحر الأزرق الهادي ثمّ تردّها يمينًا فتشمل بنظرة جوعىٰ الجبال المكسوّة بالأشجار الخضراء النضرة من سفوحها حتّىٰ قممها، تنهض شامخة حول سهل فسيح أخضر، وقد زيَّنت خضرته شقائق النعمان بألوانها الزاهية، واَنتثرت علىٰ أطرافه أشجار الميموزا، والسيسبان، والليلك، وغيرها وغيرها.

وتقول لي حياة معتزّة فخورًا:

ـ إنّ بلادنا لا تقلّ جمالًا عن أجمل بلدان أوروبّا. وأنا الآن ألوم نفسي، كيف لا أعرف بلادي معرفةً وافية وقد بلغت هٰذا العمر، وأعرف بلاد أوروبّا من شمالها إلىٰ جنوبها ومن شرقها إلىٰ غربها؟!! ألا ترين أنّ هٰذا تقصير من مدارسنا؟ يجب أن تهيّئ رحلاتٍ للطلّاب ليتعرّفوا علىٰ بلادهم، وعندما ينال الطّالب شهادة البكالوريا يكون قد عرف بلاده كلّها، وعندما يعرفها يحبّها أكثر.

هٰكذا كانت آراء «حياة» دائمًا محكمة وصائبة.

أيّتها العزيزة الغالية،

إنّ فجيعتنا بك هبطت علينا كالصّاعقة غير المنتظرة، فلبثنا ذاهلات فترة لا نعرف كيف نستوعب هٰذه الفاجعة الرهيبة، ولٰكن الذي أخذ يخفّف من غلواء حزننا علىٰ فراقك هو أننا علىٰ مثل اليقين أنّك قد غادرت هٰذه الفانية علىٰ أهون سبيل، وأنت راضيةٌ مطمئنّة كما عباد الله الصالحين، وهٰذا كرم كبير خصّك به الواحد القهّار..

ما أدري ماذا أروي من مآثرك الكثيرة الكثيرة؟..

منذ عرفتك، وما عدت أذكر متىٰ كان أوّل لقاء لنا، منذ ذٰلك الحين عرفتك تسيرين في خطّ مستقيم لا تحيدين عنه قيد أنملة.. ملتزمة دائمًا بما يوحيه إليك ضميرك أنه صدق، وعدل، وصواب.

عرفتك الابنة البارّة، والأمّ المثلىٰ الساهرة علىٰ تنشئة أولادها أحسن تنشئة، فلا تغفل عنهم طرفة عين، والزّوجة العطوف الودود التي رعت الزّوج أثناء مرضه الطويل أحسن رعاية، رعته كأمّ حنون.. ما سمعتك شاكية أو متذمّرة، كأنّك كنت تجدين في الشكوىٰ مذلّةً وضعفًا. وكأنّ شموخ الإباء، وعنفوان الكرامة كانا يمنعانك عن الشكوىٰ حتّىٰ إلىٰ أخلص خلصائك مهما قاسيت من ضيق وتعب..

كما عرفتك أديبةً، ملتزمة بقضايا وطنك، وأمّتك العربيّة، ودائمًا كنت تحضّين في كتاباتك علىٰ مكارم الأخلاق.

وكان أسلوبك صورة عنك، أنيقًا، متّزنًا، واضحًا، لا حشو فيه ولا تعقيد. وكم نودّ لو أنّ أسرتك تجمع لنا هٰذه المحاضرات، والمقالات، لتنشرها «جمعيّة النّدوة الثقافيّة النسائيّة» ذكرىٰ خالدة لفقيدتنا الغالية، إحدىٰ أعضاء الندوة البارزات.

كما عرفتك، علىٰ الرغم من مشاغلك الكثيرة، لا تتوانين أبدًا عن خدمة بلادك ومجتمعك إن علىٰ طريقتك الخاصة أو عن طريق الجمعيّات الخيريّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة، التي تنتمين إليها.

كما عرفتك، سنديانةً راسخة الجذور، لا تهزّك أنواء الحياة مهما تكن قويّة، تظلّين صامدة أمامها، متحدّيةً لها، شامخة الرأس، دائمًا أبدًا.

أيّتها الراحلة الغالية علينا.

لئن غبت عن أحداقنا ستظلّ صورتك ماثلةً في أذهاننا، وذكراك الطيّبة مغروسةً في أعماق نفوسنا، لا تجرؤ الأيّام علىٰ محوها علىٰ الرغم من قدرتها الفائقة علىٰ المحوِ.

إنّني لأطمح أن يكون لقاؤنا قريبًا في العالم السرمديّ، هٰذا إذا قُدّر لي أن أرقىٰ إلىٰ درجتك، وما كلّ ما يتمنّىٰ المرء يدركه!

إنّنا نسأل الله لك الرحمة، ولأسرتك وأقربائك وأصدقائك الصّبر والسلوان. إنّه السّميع المُجيب.

الفهرس

أعمال الأديبة

إلفة عمر باشا الإدلبي

أولًا: القصص والرّوايات

١. قصص شاميّة:
الطبعة ١، دمشق، دار اليقظة العربيّة، ١٩٥٤
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٢

٢. وداعًا يا دمشق، قصص:
ط ١، دمشق، وزارة الثّقافة، ١٩٦٣
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٢

٣. ويضحك الشيطان، وقصص أخرى:
ط ١، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٠
ط [٢]، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩١

٤. عصيّ الدمع، قصص:
ط ١، دمشق، اتّحاد الكتّاب العرب، ١٩٧٦
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩١

٥. حكاية جدّي، رواية*:
ط ١، دمشق، ١٩٩٠
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩١

٦. دمشق يا بسمة الحزن، رواية*:
ط ١، دمشق، وزارة الثّقافة، ١٩٨٠
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٠
ط ٣، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٥

٧. ما وراء الأشياء الجميلة، قصص:
ط ١، دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٦

* تُرجمت رواية «حكاية جدّي» إلى اللغة الرّوسيّة من قبل فصيح بدرخان.
وتُرجمت رواية «دمشق يا بسمة الحزن» إلى الإنكليزيّة من قبل «بيتر كلارك» مدير المركز الثّقافي البريطاني بدمشق، وتُعاد طباعتها الآن في الولايات المتّحدة الأمريكيّة في طبعتين شعبيّة وفاخرة.
وكانت قد سبقت ترجمةُ عددٍ من قصص الأستاذة إلفة إلى سبع عشرة لغةً شرقيّةً وغربيّة.

ثانيًا: مقالات ومحاضرات

٨. المنوليا في دمشق، وأحاديث أخرى:
ط ١، دمشق، ١٩٦٤
ط ٢، دمشق، ١٩٩١

٩. نظرة في أدبنا الشّعبي، دراسات:
ط ١، دمشق، اتّحاد الكتّاب العرب، ١٩٧٤
ط ٢، دمشق، دار الشّادي للنّشر والتّوزيع، ١٩٩٢

١٠. نفحات دمشقيّة، ومحاضرات أخرى:
ط ١، دمشق، دار سامي الدروبي للنّشر، ١٩٩٠

١١. وداع الأحبّة، رثاءات:
ط ١، دمشق، ١٩٩٢

١٢. عادات وتقاليد الحارات الدمشقيّة القديمة، محاضرات ومقالات:
ط ١، دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٦

عادات وتقاليد الحارات الدمشقيّة القديمة : محاضرات ومقالات
/ تأليف إلفة الإدلبي . ـ ط ١ . ـ
دمشق : إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع ، ١٩٩٦ . ـ
١٤٤ ص ؛ ٢٢ سم .

١ ـ ٠٨١ إ د ل ع ٢ ـ العنوان
٣ ـ الإدلبي

مكتبة الأسد الوطنيّة

الإيداع القانوني : ١١٠ / ١ ـ ١٩٩٦

إشبيلية : تنفيذ ١٠ (ط ١) ـ ٥٠٠ / ٢ ـ ١٩٩٦

صناعة الكتاب
بدمشق

التّحضير الطّباعي والطّباعة ، دار الشّام :

☎ ٢٢٢ ٧ ٩٩٢

التّجليد ، مؤسّسة السّفراء :

☎ ٣٣١ ٦ ٢٠٥



تمّ إخراج هٰذا الكتاب في دار إشبيلية بدمشق علىٰ برنامج
العربي للنشر

١٤٤



هذا الكتاب

... وفي حديث إلفة الإدلبي عن دمشق، الحارات القديمة وذكرياتها الدّافئة ـ الذي تُرسله مِن علىٰ المنابر الثّقافيّة هنا وهناك ـ كانت موفّقةً دائمًا في أن تستحضر الماضي وتبعثه حيًّا، بكلّ ما فيه من حبٍّ وودٍّ وجمال، وأن ترشّه عِطْرًا علىٰ رؤوس الحاضرين، المأخوذين بسحر الماضي، المبتهجين بما ترويه لهم من طريف الذّكريات وحُلو التّقاليد، وذٰلك كلّه قبل أن يُقيِّض لهٰذه الأحاديث الشّائقة أن تبقىٰ وثيقةً للأجيال.

وحبُّ «الدّيار»، عند أديبة دمشق، لا يُضاهيه إلّا حبُّها لـ «مَن سكن الدّيارا»، فهي تتحدّث، في هٰذا الكتاب أيضًا، عمّن أثّر في نفسها من الأقارب والكُتّاب والصديقات الحميمات. وإنّ اشتغالها بالأدب حبّب إليها أن تُحدّثنا عمّا في القرآن الكريم من روعة القصّ والرواية، وعنايتها بالثقافة جعلتْها تُعرّج علىٰ تاريخ سورية القديم، فتروي حكاية ذٰلك «العربيّ» الذي كان في عِداد القياصرة الذين حكموا روما.

... إنّه كتابٌ متنوّعٌ في ثقافته، بقَدْر ما هو ممتعٌ بما حوىٰ من فصولٍ في الأدب، ومن صُوَرٍ استحضرتْها إلفة الإدلبي من الماضي القريب والتاريخ البعيد.

فاضل السّباعي

